الخطاب الموازي

في

البلاغة العربية

د/ شوقي عبدالسلام محمد الدهان

كلية الآداب جامعة حلوان

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

=====

إن القارئ للدراسات النقدية الحديثة التى تعرضت للخطاب الأدبى ونصوص اللغة، بالتحليل والدراسة والنقد والتأويل ، يجد أن تلك الدراسات تناولت، أولنقل تنبهت لدراسة أنواع من الخطاب ماكان يتعرض لها النقاد الأوائل، ولاالذين درسوا الخطاب اللغوي واهتموا بتأويله وتحليله فى العصورالأولى، فتلاحظ مثلاً أنه انتشرت فى عصرنا المعاش مايعرف بدراسة بعض النصوص ،وأحياناً بعض الفقرات أوالكلمات التي لاتعتبر ضمن النص الأصلي الذي بني عليه الكتاب، فنشأ مايعرف بدراسة المقدمة والخطاب المقدماتى ،وكذلك ماوجدناه من دراسات حول عنوان الكتاب ومايتصل بالكتاب، من افتتاحيات وحواشٍ كالإهداء والتمهيد والخاتمة والتقريظ،وغيرذلك .

لذا اختارالباحث أن يتناول دراسة الخطاب الموازى – وهوماعرف قديماً بالمقدمة – الخاص بالمؤلفات التى ألفت فى البلاغة العربية ، بداية من عصرالتأليف فى العلوم العربية حتى نهاية القرن السابع الهجرى على التقريب، لنري أولاً : مدى

اهتمام هؤلاء العلماء بأمرالمقدمة والخطاب الموازى ،وهل اهتموابه وجعل كل واحد منهم لكتابه أولنصه الأصلى خطاباً موازياً ، أم أن بعضهم اهتم بذلك ،والبعض الآخرأغفل ذلك ؟ ولنري ثانياً : إلي أي حد اهتم أصحاب تلك المقدمات بها ، وهل تنبهوا إلى ما تنبه إليه الدرس الحديث من إشارة ذلك الخطاب إلي شخصية المؤلف ، وبيان خصائص أسلوبه ؟ وهل اهتم هؤلاء القدماء فى نصوصهم الموازية ببيان أهمية العلم الذى يكتبون فيه ، وماتميزبه هذا العلم ، ثم بيان ماتميز به كتاب كل واحد منهم ؟

ونود كذلك من خلال هذه الدراسة استبيان مدي تميزهؤلاء العلماء بالموضوعية والشفافية في تأليفهم وفي كتاباتهم، فهل نص الواحد منهم على جهود الذين سبقوه فى هذا المجال ، وذكرالكتب والمصاورالتى اعتمد عليها فى جمع مادته العلمية، وتأليف كتابه ،وإرساء أبوابه وأصوله وفروعه ؟

وقد اقتضت هذه الدراسة أن تكون فى مقدمة وتمهيد وأربعة محاور ، كما يأتي :

أولاً : المقدمة وذكرفيها الباحث اهتمام الدرس الحديث بدراسة المقدمة ، ودراسة كل ماجاء من نصوص خارج النص الأصلى للكتاب .

ثانياً : التمهيد: وتناول فيه الباحث المعنى اللغوى للخطاب الموازى ، وبين فيه مدى علاقته بالمعنى الاصطلاحى للخطاب الموازى ، وكذلك بيان الدراسات التى اهتمت بالخطاب الموازى وبيان المسميات الأخرى التى عرفت لذلك الخطاب لدى القدماء ولدى المحدثين ، ثم بيان أهمية ذلك الخطاب ، لأصل الكتاب ومتنه .

ثالثاً : الخطاب الموازي في البلاغة العربية ، وقد اشتمل علي أربعة محاور :

المحور الأول : وبين فيه الباحث مدى معرفة العرب للخطاب الموازى منذ عصرالتأليف ، ومسميات ذلك الخطاب لديهم ، وأهم الكتب التى اهتم فيها أصحابها بذلك الخطاب.

المحورالثاني : وحاول أن يبين فيه الباحث مدى تحقق التناص والتأثير والتأثر بين أصحاب الخطاب الموازى فى البلاغة العربية .

المحور الثالث : واهتم هذا المحور ببيان مدى اهتمام أصحاب الخطاب الموازى قديماً بالمتلقى ، والكشف عن مدى حضوره فى خطابهم .

المحور الرابع : ودرس هذا المحور ما يتصـــل بالإبـــداع والمبدع، وبين مدى إحاطة واهتمام أصحاب هذه النصوص بما يتصل بالإبداع والمبدع ، وكذلك مادة الكتابة والإبداع .

الخاتمة : وبين فيها الباحث أهم النتائج التي توصل إليهـــا هذا البحث .

*** ***

***

*** ***

تمهيد

====

الدلالة اللغوية :

=========

الخطاب الموازى مسمى حديث انتقل إلى الدراسات العربية الحديثة من خلال مطالعات المهتمين بالنقد الأدبى ' لدرسات الغربيين وأبحاثهم حول الخطاب الأدبى،والنصوص اللغوية ، وهذا المسمى تقابله مسميات موروثة فى تراثنا العربى أشهرها ما عرف باسم المقدمة أو خطبة الكتاب وافتتاحيته ، وغير ذلك من مسميات ، سنبينها في حينها ، ولكن قبل أن نلج فى بحث ما يخص الخطاب الموازى أو المقدماتى، نحاول أن نبحث عن الأصول اللغوية لمثل هذه المسميات ؛ لنري مدى التوافق والتباعد فى الدلالة والمعنى والاستخدام ، في هذه المسميات ،بين ماهو لغوي وماهواصطلاحي .

فالمادة اللغوية لهذا المصطلح هي [وزى] التى اشتق منها ما أطلقوا عليه [الموازى] فصاحب لسان العرب يذكر أن من استعمالاتها ،ما جاء " فى حديث صلاة الخوف: فَوازَيْنا العدوَ وصافَفْنَاهُم ، الموازاة: المقابلة والمواجهة . " (١)

وصاحب القاموس يذكر أن من معانى تللك المادة ، مجئ الشيء أو الشخص مصاحباً لآخر، يقول: " وأَزْوَى جاء ومعه آخر . " (٢)

وبعض المعاجم الحديثة سلطت الضوء على تلك المادة بما يتوافق مع المعنى الذي أراده أصحاب مصطلح {الخطاب الموازي}فيذكر : " وزي الشيء يَزِي وَزْيَاً :اجتمع ... وأَوْزَى لداره : جعل حول حيطانها الطين...وأوزي ظهره أسنده ، يقال: أوزي ظهره إلي الحائط ...وازاه قابله وواجهه، وتوازى الشيئان: وازى أحدهما الأخر . "(٣)

فتلك المعانى اللغوية التى ذكرها هؤلاء اللغويين لتلك المادة وما اشتق منها من معان ومصطلحات ، قد تتوافق إلى حد كبير مع المصطلح الذى نحن بصدده ؛ وذلك لأن الذين كتبوا عن الخطاب الموازى، لما أرادوا أن يبينوا دلالته ومفهومه ،اقتربت إلي حد كبير دلالتهم وعباراتهم عنه، من الدلالات اللغوية عند أصحاب المعاجم ، والتي ذكروها لتلك المادة التي بني عليها النقاد مصطلحهم ، وهذا سيظهر جلياً عندما نستعرض بعض ماقدمه أصحاب هذا الخطاب من مفاهيم وأساليب تعبر عنه ، وهذا سيبرهن بل سيقوي ما نذهب إليه .

فبعض الذين كتبوا عن الخطاب الموازي، بين أنه : " يمثل سياجاً أو أفقاً يوجه القراءة ويحد من جموح التأويل ، من خلال مايسهم في رسمه من آفاق انتظار محددة . " (٤)

فهل يمثل هذا التأويل فهماً لما ذكره المعجم الوسيط " أوزى لداره: جعل حول حيطانها الطين " ؟ والخطاب الموازى يحد من

جموح التأويل ، فهو كما ذكر أيضاً المعجم الوسيط " أوزي ظهره : أسنده " فهو سند ومعين وربما يكون مرشداً أو موجهاً لفهم المحتوى الذى يتصدره ، أو المتن الذي يليه .

ويبين أصحاب الخطاب الموازى ، أنه لايمثلاً نوعاً واحداً أو جنساً محدداً ، بل إنه يشمل أجناساً متنوعة ، منها عل سبيل المثال ما يعرف بالمحيط النصى،وتلك الأجناس تتعانق أو تتجاور مع الخطاب الأصلي للكتاب ، متمثلة في " كل عناصر النص الموازى التى تتموضع بصفة دائمة أو مؤقتة خارج الكتاب ،وترتبط معه بعلاقة شرح أوتأويل أو تعليق أو حوار، أو غيرها من أنواع الإضاءة المعرفية الموجهة لقراءة النص ، ضمن مقصدية تداولية محددة،إنها نصوص موازيه تدور حول النص . " (٥)

فهذه المفاهيم تلتقى مع ما ذكره أصحاب المعاجم من مجئ الشىء ومعه آخر،أو ماذكروه من معانى المقابلة والمصاحبة والمواجهة، التى تنتج من مادة[وزى]أو تشير إليها.

وقبل أن نترك تلك الجزئية التى تتصل بالمفهوم اللغوى، نود أن نشير إلى أن أصحاب المعاجم اللغوية قد تناولوا مدلول ذلك الخطاب بطريقة أخرى، ومع بعض المواد اللغوية ذات الدلالات المتقاربة لتلك المادة التي نحن بصددها ، وهذا لأن دلالة الخطاب الموازى المستخدم حديثاً ، هو نفس مدلول ما عرف بالمقدمة أو الخطاب المقدماتى ، والذى تناوله دارسو مثل هذه المسميات ، فهى مسميات

أو مصطلحات لمفهوم واحد ، وهذا يؤكده لنا أحد أصحاب المعـــاجم العربية الحديثة، عنما يعرف المقدمة بقوله : " هوالفصل الأول من كتاب يتناول بشىء من الإجمال الأسس التى يقوم عليها الكتـــاب ، والتى بدونها لايمكن ان يفهم تخطيط تأليفه٠٠٠وهى مقـــال طويـــل يقدم به المؤلف أهم المبادئ والمناهج التى سيقوم عليها مؤلفه فيما بعد . " (٦)

فالمسميات تتطور وتختلف ، والدال والمقصـــد واحـــد " فلقـــد أضحت عتبات النص أو مااصطلح علي وسمه كثير من النقاد {النص الموازى} paratexte عوالم حافلة بالنص الأدبى،ومقومات أساسية فى بلاغة النصوص وجماليتها ، دلالة وشكلا وتقبلا . "(٧)

الخطاب الموازى الخصائص والقيمة

==========

قبل أن نتحدث عن خصائص الخطاب الموازي وقيمته وأهميته ، نجد لزاماً علينا أن نبين أن التراث العربي اشتمل علي مسميات متنوعة ، تلتقي مع مفهومه ودلالته في كثير من الأحيان ، فسميات الخطاب الموازى تنوعت بل تعددت وكذلك تطورت علي مدار عصور التأليف في العلوم العربية ، فالعلماء العرب قديماً عندما كانوا يؤلفون كتبهم، ويصدرونها بكلام أو بنص غيرمتن الكتاب ، كانوا أحياناً لايسمون ذلك النص ، والذي هو خارج المتن باسم المقدمة، ولكن كان منهم من يسميه {خطبة الكتاب}أو أى مسمى آخر .(٨)

فالقزوينى مثلاً فى كتابه المسمى {الإيضاح فى علوم البلاغة}عندما أراد أن يكتب افتتاحية يبدأ بها كتابه، أو ما يشبه الخطاب الموازى المعروف حديثاً، تراه بعد البسملة يقول: خطبة الكتاب ، وكأن القزوينى تخيل جماعة من العلماء أو طلاباً للعلم من الذين يهتمون بهذا العلم ، ويبحثون عنه،تخيلهم يجلسون أمامه، كما يجلس أى جماعة من الناس فى أى ملتقى علمي، فشرع القزوينى يتخيل أنه يقف بين أيديهم ليلقى فيهم خطبته ،يبين فيها خصائص هذا الكتاب وأهميته، وكذلك أهمية العلم الذى ينتسب إليه، اهتماماً منه بهؤلاء المتلقين الذين عناهم بمؤلفه،وألف كتابه من أجلهم، فتراه يقول : " الحمد لله رب العالمين،وصلواته على سيدنا محمد وآله أجمعين، أما بعد :

فهذا كتاب فى علم البلاغة وتوابعها ، ترجمته بالإيضـــاح٠٠٠فجـــاء بحمد الله جامعاً لأشتات هذا العلم . " (٩)

وإذا كان القزوينى– كما ذكرنا – سمى ما بـــدأ بـــه كتابـــه بخطبـــة الكتاب، فإن هناك الكثير من قدامي المؤلفين العرب الذين ألفوا كتـــبهم ، وكتبوا لها البدايات أو المقدمات أو خطابها الموازى ،تراهم لايذكرون لها مسميات أو أي مصطلحات ،تميزها أو تحددها عن النص الأصلي لكتـــبهم ومؤلفاتهم .

فصاحب الشعر والشعراء يكتب فى مفتتح كتابه، قال أبـــو محمـــد عبدالله بن مسلم بن قتيبة : هذا الكتاب ألفته فى الشعراء ، أخبرت فيـــه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم في أشعارهم ٠٠٠فمن أراد أن يعرف٠٠٠حلو الشعر ومره وعظيم نفعه وضره، نظر فى ذلك الكتاب إن شاء اللة تعالى ."(١٠)

فتلاحظ أن ابن قتيبة كتب تلك الافتتاحية بدون أن يشير إلى أن هـــذه هي خطبة الكتاب ، أو مقدمته أو افتتاحيته ، وإن كنا نرى فى هذا النص الذى هوا خارج نص الكتاب ، كل خصائص ومكونات مـــا عـــرف قـــديماً بالمقدمة ، وعرف حديثاً بالخطاب الموازى.

ويبدو أن ذلك الاتجاه من القدماء ،فـــى كـــونهم لايســـمون نصـــهم الموازى أو مقدمتهم ، جعل الذين اهتموا حـــديثاً بتحقيـــق تلـــك الكتـــب وشرحها وضبطها، يضعون مقدمة مـــن عنـــدهم ، ويســـمونها بمقدمـــة الشارح أو المحقق ، وإذا صادفتهم افتتاحية المؤلف ، أو ماكتبه كتمهيـــد لخطابه الأصلي ، يقولون : {مقدمة المؤلف} وذلك حتى لاتختلط مقدمتهم بما كتبه المؤلف، أو هو من باب الأمانة العلمية ، فأرادوا أن يلفتوا نظر

القارئ إلى أن المؤلف صنع مقدمة لكتابه ، وأن المؤلف لم يغفل ذلك ، لمعرفته بمدي أهميته للكتاب وللمتلقي الذي يخاطبه بهذا النص ،حتي وإن كان لم يسمها ، أو يشر إلي مصطلح يميزها .

وترى مصداق ذلك ، عندما تقرأ علي سبيل المثال ، ما كُتب في بداية كتاب {فقه اللغة وسر العربية } فتري المحقق في صفحه ٣ يقول : المقدمة أو مقدمة الطبعة كذا ، وفى صفحة ٢١ يبدؤها بقوله : مقدمة المؤلف، ويبين أن هذه رسالة جعلها الثعالبى مقدمة على فقه اللغة وسر العربية، الذى ألفه لمجلس الأمير أبى الفضل عبيد الله الميكالى .(١١)

وقبل أن نترك تلك الجزئية التى نتحدث فيها من مسميات الخطاب الموازى عند العرب الأقدمين ، نود أن نشير إلى أن هناك مسميات أخري متنوعه ومتعددة عرفت لهذا الخطاب على مدار عصور التأليف فى العلوم العربية ، فهناك من كان يسمى خطابه المقدماتى بالتمهيد أو المدخل ، وهناك من أطلق عليه اسم التصدير أو المطلع ، وهناك من يذكر أنه توطئة لعمله أو مؤلفه ، وهناك ما عرف لدي العلماء بحسن الاستهلال وحسن المطلع ، كما هو معروف فى قصائد الشعر ، وهناك مسميات أخري حملها لنا التراث العربي لمثل هذه المداخل وهو ما سمى باسم ، الفاتحة أو فاتحة الكتاب كما جاء فى القرآن الكريم ، ومن العلماء من أطلق علي مدخله أو تمهيده قوله : ديباجة الكتاب ورسالته .(١٢)

ويمكن أن نضيف إلي ذلك مايوجد في تراثنا العربي والإسلامي من بعض المسميات أو بعض المصطلحات التى تحيط في كثير من الأحيان بالخطاب الموازى أو تسبقه ،وإن كانت تشاركه وتقوم بما يقوم به من وظائف يقدمها للخطاب الأصلي .

فهناك مثلاً العنوان والإهداء والدعاء والخا تمة والتذييل ،ومايدل علي تواضع المؤلف ،أو تفرده وعلو مكانته في العلم ، وما عرف حديثاً باسم الفهرسة والإشارة إلى محتوى الكتاب ، والموضوعات التى يعالجها ويتناولها .

فإذا نظرنا إلى العنوان ،كأحد تلك المسميات ذات الصلة بالخطاب الموازى ،فإننا نرى أن العنوان يحتل اهتماماً كبيراً من نقاد الخطاب ومحللى النصوص الأدبية ، فعنوان الكتاب عند أحدهم " كالاسم للشيء، به يعرف، وبفضله يتداول ويشار إليه ،ويدل عليه،ويحمل الكتاب وسمه، وهو ضرورة كتابية٠٠٠بل يعد البعض العنوان جنساً أدبياً مستقلاً ،يقع فى علاقة تداخل مع العمل الأدبى، ومن خلاله يمكن تفكيك النص الأدبى ،إلي بنياته الصغري ". (١٣)

فالعنوان يمثل ضرورة لأى عمل كتابى أو أدبى، لأنه يمكننا أن نشبه العنوان برسالة صادرة من مرسل ، وستصل مرسل إليه، ومن خلال تلك الرسالة ، يستطيع المرسل إليه أن يتعرف على مقصد المرسل ، وبالتالى يمكنه أن يتفاعل مع العمل الذى صنعه المرسل، وأعد له تلك الرسالة، أوهذا العنوان .(١٤)

ولم يغفل العرب قديماً دلالة العنوان عما وراءه من معانٍ، أو عن مدي إشارته إلي مضمون الشيء وكنهه، فعدى بن الرقاع عبر عن ذلك فى شعره عندما قال :

عن الدار كعنوان الكتاب هاجت الشوق وعيت الجوابا

فعدى تنبه فى ذلك الشعر إلى معنى العنوان ووظيفته فى الكلام ومؤلفات العلماء ، ذلك لأنه شبه دار الأحبة وبقايا الأطلال بعنوان الكتاب ، حيث إنها تدله عما حدث لأصحابها من حل وترحال وفناء وتلاشٍ، وهيجت أحاسيسه وحركت أفكاره، كما يحرك الكتاب أحاسيس قارئه ويشغل أفهامه ،ويؤثر في وجدانه . (١٥)

والخطاب الموازى ذلك المسمى الحديث والذى نحن بصدد الحديث عنه ،والذى سمى قديماً باسم المقدمة أو غيرها من المسميات، نشأت لة أيضا بعض المسميات التى راقت لأصحابها فى دراساتهم وتناولهم لهذا النص الذى يسبق متن الكتاب .

فهناك من درس المقدمة تحت مسمى النص المقدماتى واعتبرها نصأ من نصوص اللغة ، أو الأدب التي تأتي ضمن نصوص الكتاب التى تكتب ويجرى عليها التحليل والدراسة . (١٦)

ومن العلماء من اعتبرها خطاباً من ضمن أنواع الخطاب اللغوى وألأدبى ،وإن كان عندما أراد أن يدرسها قرن بين مفهوم الخطاب الحديث والمسمى القديم لها، فدرسها تحت مسمى الخطاب المقدماتى . (١٧)

وعبد الرازق بلال اعتبر أنها تمثل عتبة يدخل من خلالها القارئ إلى النص المراد قراءته، وغيره من النصوص ، مثلها فى ذلك مثل عتبات الدور ومداخل البيوت، فدرسها تحت مسمى عتبة النص أو عتبات النص ، باعتبار تنوع النصوص اللغوية والأدبية .(١٨)

ولا ننسى المصطلح الحديث الذى جعلناه عنواناً لهذا البحث ، وهو الخطاب الموازى ، وسبق الإشارة إلى مقصده ودلالته .

وبعض الذين كتبوا عن الخطاب الموازى أو النص الموازى أبدوا تحفظاً على هذا المصطلح وذكروا أن النص الموازى يعنى ألاتقاطع ، وألاتفاعل ،بينه وبين خطاب الكتاب الأصلي ، وكأنهم بذلك استحضروا دلالة التوازى فى الرياضيات ، حيث إن الخطين المتوازيين هما اللذان لا يلتقيان ، وبهذا لا يكون هناك التقاء أو تفاعل بين النص الموازي والنص الأصلي للكتاب ، ولكن أصحاب تلك المسميات احتجوا على صحه ذلك المصطلح ، بأن هذه التسمية تعني التجازب المطرد والتفاعل الحتمى بين كل العوالم المتوازية ، وعليه – حسب ماذهبوا إليه – يكون هناك التقاء وتأثير وتأثر بين كلا النصين ، أو لنقل إن أحدهما يكمل الآخر ، والمعاني والمفاهيم التي تخص العلم الذي ألفا فيه ، مانفتقده منها في أحدهما يمكن أن نعثر عليه في الآخر . فهما كخطاب واحد للكتاب . (١٩)

بقى أن نشير فى هذه الصفحات إلى أهمية الخطاب الموازى للنص الأصلى ، حيث ذهب الكثير مما تناولوا هذا الموضوع وكتبوا عنه ، إلي أن المقدمة أو الخطاب الموازى يعد بمثابة البهو الذى ندلف منه إلى البنيات المغلقة فى النص، بل إن المقدمة تسهم فى الإحاطة بالجنس الأدبى ونوع الخطاب ، الذي نتعامل معه ،وتعمل على فك رموزه وانغلاقاته ، التى لا يتأتى للكاتب أن يبسطها داخل النص (٢٠)

بل إن الخطاب الموازى يقوم بدور لا يقوم به الخطاب الأصلى ، حيث ينبه القارئ إلى أصل الكتاب ومراحل تأليفه ، والظروف التى أحاطت بتأليفه، وأحياناً تتحول المقدمة إلى خطاب دفاعى حجاجى يصادر أى انتقادات قد توجه إلى خطاب الكتاب الأصلى ، وما إلى غير ذلك .

ثالثاً : الخطاب الموازى فى البلاغة العربية

==========

المحور الأول : وعي العلماءالعرب بالخطاب الموازي : -

==========

لايستطيع أحد ممن كتب عن الخطاب الموازى أوالنص المقدماتى من العلماء المحدثين أن ينكر سبق العلماء العرب فى معرفه ذلك الخطاب الذي يسبق النص الأصلي ،الذي أراد العالم أو منتج الخطاب أن يضمنه علمه وما أراده من معارف ، وهو الذي سمي بعد ذلك باسم الكتاب ، ويكون ذلك الخطاب الأو ل بمثابة نبراساً له أو إضاءة لمحتواه .

فعندما ننظر إلي بداية عصر تأليف الكتب وتدوين العلوم ، نجد أن السمة الغالبة علي علماء العرب ، أنه كان الواحد منهم يضع نصب عينيه كتابة هذا النص الأول قبل أن ينشغل بمتن كتابه أو الخطاب الأصلي ، الذي شحذ قريحته وهيأ نفسه ليلج إلي مضمونه ومحتواه ، وإن كنا نلاحظ أن بعض هؤلاء العلماء وإن لم يكن معظمهم كان لايهتم بوضع مسمي لذلك النص الأول ، أولا يضع له مصطلحاً يميزه عن الخطاب الأصلي ،وكان كل هم هؤلاء ينصرف إلي وضع تسمية لائقة لعمله الذي ألفه، ودالة في الوقت نفسه علي العلم الذي تضمنه .

والملاحظ علي الذين تركوا تسمية هذا النص الأول ، أنهم كانوا يعتبرونه كالافتتاحية لخطابهم العلمي أو كمدخل تمهيدي لما ينون التأليف فيه، لذا نراهم غالباً مايبدأونه بالمدح والثناء علي الله –سبحانه– وطلب

العون والسداد والتوفيق فيما ينون الكتابة فيه أو التأليف في بابه ، كما سيتضح لنا فيما بعد .

ومما يلفت نظرنا في تلك الجزئية أيضا أن الذين سموا خطابهم الموازي من مؤلفي العرب وكتابهم ، قد تعددت وتنوعت مسمياته عندهم ،فمنهم من يعتبره تمهيدا ، ومنهم من يعده مدخلا أو افتتاحية ، ومنهم من يسميه تقديما للكتاب أو خطبة له ، إلي غير تلك المسميات التي عهدناه عند هؤلاء وورثناه عنهم ،وذلك لأن هذا ديدنهم في الكتابة وعرفهم في التأليف " فقد كانت العرب قديماً لا يرضون بالكتاب إلا إذا كان مختوماً ومعنوناً ."(٢١)

فكان المتلقي متمثلاً في القارئ العربي أو مطالع الخطاب ، أياً كان نوعه ، لايرضي بالكتاب إلا إذا مختوما مكملا ومتمما ، وفي المقابل كان المنتج أو المبدع حريصا هو الآخر علي ألا يخرج خطابه أوعمله ومؤلفه إلا في أحسن صورة .

ومما يجدر بنا أن نذكره في هذا الجانب ،أن الذي دعانا إلي أن نسلط الأضواء علي اهتمام المؤلف العربي بإخراج كتابه في صورة مثلي ، وأن يضع فيه مايري أن خطابه في حاجة إليه ، من تمهيد أو تقديم أو غير ذلك ، ويراه متوافقا ومتناغما مع محتوي عمله وخطابه ، أن بعض العلماء ذهب إلي أن مؤلفات الغرب لم تعرف المقدمة المنفصلة أو النص الموازى بصورته الحديثة إلا مع بدايات القرن السادس عشر الميلادى، وذلك لأنه " يمكن الحديث عما يسميه {ج جينيت} بما قبل تاريخ المقدمة وهى الفترة الممتدة من {هوميروس}إلى {رابليه}والتى كانت فيها المقدمة تندرج ضمن الفقرات والصفحات الأولى من المؤلف ، فالأبيات

الأولى من {الإليادة}أو الأوديسة}هى من أمثلة هذا النمط من المقدمة المدمجهة فى النص ٠٠٠ ونجده عند أرسطوفان وشكسبير وجوته ، لكن استهلال رابليه ،يظل أول نوع من المقدمات المستقلةعن متون الكتب . " (٢٢)

ويبدو أن العرب كما عرفوا الخطاب الموازى المستقل عن الكتاب ،عرفوا كذلك ما عرف لدى الغرب قديماً بالمقدمة المدمجة أو النص الموازى المدمج مع النص الأصلى للخطاب ، وهذا ما نراه واضحاً فى الخطاب الأدبى أو الأعمال الشعرية فى العصر الجاهلى وعصر صدر الإسلام الذى عرفت فيه القصائد الطوال ، كالمعلقات بالبدايات الاستهلالية أو التمهيدية ، مثل الذي نقرأه فى الافتتاحيات الطللية أو البدايات الغزلية ، والتى صارت كالعرف بين الشعراء أو كالتقليد الموحد للقصيدة العربية فى ذلك العصر ،وأصبح لايقبل من الشاعر فى الأعم والأغلب أن يشذ عنها، أو يخرج عن نظامها .

ولدينا بعض الأدلة التي يمكن أن نسوقها ، لنؤيد به ما ذهبنا إليه من أن العرب كانت لهم الأولوية فى وضع الخطاب الموازى ، وكتابة المقدمة الستقلة عن أصل الكتاب ومتنه ، ومن ذلك مابينه الجاحظ فى كتاب الحيوان ، عندما أراد أن يتحدث عن الكتب والكتاب وطرق الكتابة ، وأفضل الطرق للكتابة والتدوين ، واستخدامات الكتابة ، فيذكر أن من عادة المجيدين للكتابة إذا تعرض الواحد منهم للكتابة " فلايرضى بالكتاب حتي يخزمه ويختمه ، وربما لم يرض بذلك حتى يعنونه ويعظمه . " (٢٣) والخزم والختم والعنوان والتعظيم أو التقريظ ، كل ذلك خلاف المتن

أو أصل الكتاب ، وكل ذلك يدخل ضمن ما عرف بالنص الموازى ، أو الخطاب المقدماتي .

ومما يؤكد لنا أيضاً على اهتمام العرب بالخطاب الموازي ومايتعلق به من مسميات أو يتصل به من معارف ، أننا عندما ننظر في بدايات الكتب التى كتبت فى بداية عصر التدوين ، وتيقن لنا أنها وصلت إلينا عن هؤلاء الأوائل ضمن ما وصل إلينا من تراث العرب والإسلام ، ستجد في الصفحات الأولي منها ، أن أصحابها يهتمون بوضع ذلك النص ؛ ليبين الواحد منهم فيه هدفه من الكتاب ، أو يبين من خلاله محتوى ذلك المؤلف الذى يقدمه للمتلقى .

ومن الأمثلة علي ذلك ، أنك عندما تفتح كتاب مجاز القرآن ، وهو من أوائل الكتب المؤلفة فى التراث العربى في بداية عصر التدوين ، تجد أن صاحبه يهتم بوضع ما كانوا يسمونه بخطبة الكتاب أو الافتتاحية ، وأنه جعلها ليوضح فيها منهجه فى بيان مجاز القرأن وخطته فى ذلك ، والأصول والقواعد التى سينتهجها فيه ' إذ يقول : " حدثنا على بن المغيرة الأثرم عن أبى عُبيدة مَعْمَر بن المُثَنَى ، قال :القرآن اسم كتاب الله خاصة٠٠٠والسورة من القرآن يهمزها بعضهم ، وبعضهم لا يهمزها ،لأنه يجعل مجازها مجاز منزلة . "(٢٤)

وكذلك عندما نطالع طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ، نراه قبل أن يدخل إلى موضوعات الكتاب ، وقبل الحديث عن طبقات الشعراء ، يشير بعد البسملة إلى ما سوف يتكلم عنه ، وأن حديثه سيخص شعراء العرب المشهورين وفرسانها وأشرافها وأيامها ، فيقول : " فذكرنا العرب وأشعارها ،والمشهورين والمعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها

وأيامها ٠٠٠فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهله عالم ،ولا يستغنى عن علمه ناظر فى أمر العرب ،فبدأنا بالشعر . " (٢٥)

ومن الأوائل الذين اهتموا بالخطاب الموازى من المؤلفين العرب أيضاً، عبدالله بن قتيبة ، ونجد ذلك جلياً فى كتابه تأويل مشكل القرآن ، الذى بدأه بنص مواز، وضح فيه فضل القرآن وسر إعجازه ، ومعانى الآيات القرآنية وسر تأويلها وإعجازها.(٢٦)

ومما يجب أن نذكره ونحن نتحدث عن اهتمام العرب الأوائل بالنص الموازى أن نبين أن بعض الذين ألفوا في العلوم العربية فى بدايات التأليف والتدوين لم يلتفتوا إلى ماعرف بمسميات الخطاب الموازي من افتتاحية أو تمهيد أو مقدمة أوما إلي ذلك ، وكانوا يبدأون كتبهم بالحديث مباشرة عن موضوعاتهم التي خصصوا كتبهم للحديث عنها ،أو الكتابة فى الفن أو العلم الذى أرادوا الكتابة فيه، دون أن يسبقوه بأى كلام آخر، وهذا النهج الذى سلكه هؤلاء ، يرجع إلى أنهم ربما لم يدركوا أهمية تلك المقدمة أو ذلك النص لمتن الكتاب أو الخطاب العلمى الذى هم بصدد تقديمه للقارئ أو المتلقى ، أو ربما يكون هذا التقليد لم يدخل الدائرة العلمية التى يتعاملون فيها ويعيشون فى محيطها ، وربما أيضا علموا ذلك ، ورأوا البعض يصنعه ،ولكنهم وجدوا أنه عمل لايمثل أهمية لنصهم العلمى ، وأنهم فى غنى عنه ، ورأوا أنه من الأفضل أن يواجهوا المتلقى بما هوأفضل من المقدمات والافتتاحيات والخطب بين يدى الكتب ،والنصوص الموازية ، فيواجهونه مباشرة بعلمهم الذى أرادوا تقديمه له ، وتصانيفهم التى عملوا على الاهتمام بها ،ولفت نظر قرائهم إليها إلي ماتحتويه دون غيرها .

ومصداق ذلك ما نراه عند الأصمعى فى كتابه المعروف بفحولة الشعراء،حيث نرى أن من نقله أو رواه لنا يبدأه مباشرة بذكر سند الرواية أو الأخبار دون تقديم أو تعريف أو تمهيد ، فيبدأ الكتاب بقوله : " حدثنا محمد بن الحسن ... سمعت الأصمعى عبد الملك بن قريب غير مرة يفضل النابغة الذبيانى على سائر شعراء الجاهلية ، وسألته قبل موته من أول الفحول ؟ قال :النابغة . (٢٧)

فتراه يخبرنا بمادة الكتاب مباشرة ويتناول أسماء الفحول من الشعراء وسر تفوقهم ، وهو الهدف الذى أنشأ الكتاب من أجله .

وعند تصفحنا لكتاب سيبويه والذى سماه باسم (الكتاب) ويعد من أوائل الكتب المؤلفة فى فنه ، وفى فنون العربية كافة ، حيث إن صاحبه توفى فى سنة ١٨٠هـ ، وهذا يعد وقتا متقدما فى التأليف فى العلوم العربية ؛ إذا أردنا أن نبحث عن تأريخ للتدوين والكتابة فى العلوم العربية فى صورتها المتكاملة ، والتى وصل إلينا منها بعض المؤلفات والكتب والمدونات ، التى اهتم فيها أصحابها بتسجيل العلوم والمعارف العربية والإسلامية ، وكل ما يخص التراث الإسلامى والعربى فى مثل هذا الوقت المبكر، نجد أن سيبويه لم يلتفت إلى تقديم كتابه للقراء ولو بخطبة صغيرة أو تمهيد قليل الكلمات ؛ يبين فيه أهمية هذا الكتاب الذى يمثل قيمة كبيرة للغة العرب فى بابه وموضوعاته ، لذلك نراه يبدأ موضوعات كتابه فى النحو والصرف مباشرة ، فيقول : " هذا باب علم الكلم من العربية ، فالكلم اسم وفعل وحرف جاء بمعنى ليس باسم ولا فعل . " (٢٨) وهكذا بدأ كتابه ، دون أي مقدمات أو كلام سابق .

ويبدو أن هذا الصنيع من سيبويه لفت أنظار قراء كتابه ، والذين اهتموا بروايته ونقله فأخذوا يطرحون بعض الفقرات وبعض الجمل ، والتى يبدأون بها كلامهم قبل رواية الكتاب أو نقله ، فيبينون فى هذه الكلمات قيمة هذا الكتاب أو أهمية الموضوعات التى تناولها ، ويذكرون جهد سيبويه فيه ،ويذكرون كذلك من اهتم بهذا الكتاب ونقله وفهمه وعلمه لطلاب العلم ، وذلك مثل : " قال لنا أبو جعفر أحمد بن أحمد : وأخذه أبو جعفر عن الزجاج عن المبرد ، وراوه المبرد عن المازنى عن الأخفش عن سيبويه ٠٠٠قال لنا أبو جعفر أحمد بن محمد : لم يزل أهل العربية يفضلون كتاب أبى بشرعمرو بن عثمان بن قَنبر، المعروف بسيبويه حتى لقد قال محمد بن يزيد : {لم يعمل كتابٌ فى علم من العلوم مثل كتاب سيبويه ؛ وذلك أن الكتب المصنفة فى العلوم مضطرة إلى غيرها ، وكتاب سيبويه لا يحتاج من فهمه إلى غيره } . " (٢٩)

فالرواة والقراء والدارسون لكتابه يبدو أنهم تنبهوا إلى إغفال سيبويه لمثل هذا التقديم والتعريف أو التقريظ ، فعملوا على صنع ما فاته المؤلف وما غفل عنه.

ويبدو أنه لشدة اهتمام المؤلف العربي قديماً بأمر الخطاب الموازى والتقديم والتمهيد ، وغير ذلك من مسميات، جعل واحداً من هؤلاء المؤلفين ،وهو أحد علماء القرن الثامن الهجرى، إلى أن يفرد للمقدمة أو للخطاب الموازى كتاباً مستقلا تقارب صفحاته إلي مايزيد عن خمسمائة صفحة من الحجم الكبير ، ويقترب حجمه مما يعرف في المكتبة العربية باسم المجلدات ،وهذا أكبر دليل على إدراك عبدالرحمن بن خلدون صاحب هذا العمل القيم إلى ما يقدمه الخطاب الموازى، أو التقديم من

فوائد لطالب العلم والباحث عن حقائق المعرفة وأصولها ، وهي ماعرفت بين العلماء وفي المكتبة العربية باسم (مقدمة ابن خلدون) .

ومن خلال مطالعتنا لهذا العمل القيم ، نجد مدي اهتمام صاحبه به اهتماما يدل علي احتفائه بالخطاب الموازي ، ويقظته إلي أهمية مايقدمه للعلم وطلابه ، لذا نجد ابن خلدون يقدم لخطابه الموازى الكبير (المقدمة) بخطاب موازٍ قصير ، فأصبح مؤلفه في التاريخ أو عمله العلمي ذات مقدمتين أو خطابين موازيين ،مقدمة للمقدمة ، ومقدمة لكتاب التاريخ ،الذى ألفه وقصد أن يعرفنا به وبأهمية محتواه من خلال تلك المقدمة ، وكل ذلك يدلنا على مدي اهتمام ابن خلدون بأمر التقديم والتمهيد والتوطئة ،وما عرف حديثا بالخطاب الموازي .

وعند النظر إلي الصفحات الأولى من كتاب المقدمة ، نلاحظ أن ابن خلدون يبدؤها بالحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى ، ثم يذكر فضل علم التاريخ وما يبذله العلماء والناس عامة من أجل الإلمام بهذا العلم والإحاطة بدقائقه ويذكر لنا أيضاً ابن خلدون ، بعض علماء العرب الذين اهتموا بهذا العلم ، وكل ذلك فى حوالى ثلاث صفحات ، جاءت كتمهيد أو كمدخل لخطابه الموازي الصغير ، الذي أورده كتمهيد لنصه الموازى الكبير–كما ذكرنا سابقاً– لذا تراه فى نهاية هذا النص الموازى قليل الصفحات، يذكر لك خطته فى تأليف هذا الكتاب ، والكتب التي سيتكون منها كتاب التاريخ الذي ألفه فيقول : " وسلكت فى ترتيبه وتبويبه مسلكاً غريباً ، واخترعته من بين المناحى مذهباً عجيباً ،حتى تنزع من التقليد يدك، وتقف على أحوال من قبلك من الأيام والأجيال ، وما بعدك ، ورتبته

على مقدمة وثلاثة كتب ، المقدمة : فى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع بمغالط المؤرخين . (٣٠)

فكما تلاحظ من خلال كلام ابن خلدون أنه يصرح بوضع تلك المقدمة لهذا الكتاب ، ويذكر كذلك ما سوف تتضمنه من معارف ، ولكنه- كما سبق أن ذكرنا- لم يكتف بمقدمة واحدة ،ولكننا نجده يذكر مقدمة بعد مقدمة ، وخطاباً بعد خطاب ، فتراه مثلا وهو يستعرض موضوعات المقدمة يقدم لبعض موضوعاتها وماسوف يذكره فيها بمقدمة ،أو بخطاب مواز قصير؛ يبين فيه أهمية هذا الباب أو الموضوع الذى سوف يتناوله ، فهو مثلاً فى صفحة {٣٤} يقول المقدمة الأولى : فى أن الاجتماع الإنسانى ضرورى، وبعدها فى صفحة {٣٦} يقول : المقدمة الثانية : فى قسط العمران من الأرض ، وفى صفحة {٤٠} يكتب تكملة لهذه المقدمة الثانية- حسب قوله- فى أن الربع الشمالى من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبى ، وفى صفحه {٦٩} يكتب المقدمة الثالثة فى المعتدل من الأقاليم والمنحرف ، وفى صفحة {٧٢}يقول المقدمة الرابعة ، وتراه بعد ذلك فى الصفحات التالية يذكر المقدمة الخامسة ثم المقدمة السادسة ، وهذا كله كما سبق أن ذكرنا يدل علي التفات ابن خلدون إلى أهمية الخطاب الموازى فى إعلام القارئ أو المتلقي ببيان العلم والمعارف التي تشملها الكتب والمؤلفات والأطروحات التى يقدمها العلماء للناس؛ ولتنبيههم مقدماً أو بداية باهمية ما يطرحونه على الناس وطلاب العلم (٣١).

ومما يلفت النظر ونحن نتحدث عن ابن خلدون وعن خطابه الموازى أننا وجدناه أرسى مبدأ مهماً فى كتابه عن التاريخ الذي أشرنا

إليه سابقاً ،وهو أنه جعل كتابة الخطاب الموازي بعد أن انتهى من تدوين كتابه الأساسى الذى قدم له بذلك الخطاب ، حيث يشيرفى نهاية المقدمة إلى التاريخ الذي انتهي فيه من تأليفها ، وذلك في قوله : " قال مؤلف الكتاب –عفا الله عنه–أتممت هذا الجزء الأول بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب فى مدة خمسة أشهر، آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة، ثم نقحته بعد ذلك وهذبته ٠٠٠وما العلم إلا من عند الله العزيز الحكيم . "(٣٢)

ثم يبين ابن خلدون فى مواضع أخرى من كتابه ، التاريخ أو الوقت الذي انتهي فيه من تأليف كتابه الأساسي في التاريخ ، فيذكر أنه انقطع لكتابة تاريخه قبل هذا التاريخ السابق بثلاث سنوات ،حيث أثبت أنه أقام فى مكان تأليفه بالقلعة التى ذكرها، وانقطع فيها منذ عام ٧٧٦هـ ليكتب فيها كتابه فى التاريخ ، ويبدو أنه عندما فرغ من كتابه الأصلي ، شرع فى كتابة المقدمة ، كما ذكر ذلك من قدموا لكتابه ومقدمته . (٣٣)

ونحن بدورنا نحمد لابن خلدون هذا النهج ،ونعتبره من الأعمال التي تحسب له ،ويسجل له فيها فضل السبق ، وذلك لأن كتابة الخطاب الموازى بعد الانتهاء من الخطاب الأساسي أو أصل الكتاب يعد اتجاهاً له أهمية خاصة للاثنين في وقت واحد ؛ فالأفكار والمعارف التى يريد أن يكتبها صاحب الخطاب الموازي فيه ، يكون قد ازداد فحصاً وتدقيقاً وتجميعاً لها ، فلا تحتاج أثناء كتابتها إلى مزيد من الجهد والتفكير ، وبانتهائه من كتابه الأصلى تكون كذلك كل المعلومات والأفكار والمعانى، أصبحت ماثلة أمامه ، فينتقى منها ما يريد ويختار مايشاء ويقدم ما

يستحق التقديم ويؤخرمايحتاج إلى التأخير، ويسهب فيما يستحق الإسهاب، ويومئ إلي مايحتاج مجرد الإشارة والإيماء .

بقى لنا أن نشير إلى الأهمية الخاصة التي احتلها ذلك الخطاب الموازى لابن خلدون ، فقد بلغ من أهمية هذه المقدمة أن اهتم بها علماء الفرنج أكثر من اهتمام علماء العرب بها أحياناً .

فقد ترجمت إلى عدة لغات أوروبية ، وبدأت بترجمة(دي سلان) فى سنة ١٨٦٣م ، وكذلك الترجمة الإنجليزية المهمة التى أشرف عليها المستشرق الألمانى الأصل (فرانتس روزنتال) المتوفى فى عام ٢٠٠٣ م ، ونشرت تلك الترجمة فى نيويورك عام ١٩٥٨م ، وكل ذلك يدلك على أهمية تلك المقدمة ، وأهمية ما يحتويه ذلك الخطاب الموازى الذى كتبه بن خلدون كما سبق وأن أكدنا . (٣٤)

المحور الثاني : التناص في الخطاب الموازي

==========

توطئة :

====

قبل أن نتحدث عن السمات التى ميزت الخطاب الموازى عند علماءالبلاغة العرب ، نود أن نبين أن غالبية الذين كتبوا فى البلاغة العربية تنبهوا إلى أهمية الخطاب الموازى فى مؤلفاتهم وكتبهم التى قدموها عن هذا العلم ، والذى يمثل أهمية خاصة لفهم دقائق الخطاب العربى ، والأدبى والشعرى منه بصفه خاصة ، فلا نكاد تطالع كتاباً يخص بلاغة العرب إلا ونجد صاحبه قد بدأه بكتابة خطاب مواز له .

ولتأكيد ذلك وبيانه ، سنقوم باختيار مجموعة من أهم الكتب التى أرخت للبلاغة العربية وكتبت عن فنونها ،وسنحاول أن يكون اختيارنا لتلك المجموعة يمثل العصور الأولي للتأليف في هذا العلم المفيد ، فنبدأ من عصر التدوين أو التأليف فى البلاغة العربية ثم العصور التى تلتها ، فكلها تمثل المرحلة المبكرة للتأليف فى البلاغة ،وهى الفترة التى عرفت بين العلماء بعصر النهضة والابتكار فى العلوم العربية ،وظلت تلك الفترة الذهبية حتى نهاية القرن السابع الهجرى وبدايات القرن الثامن تقريباً .

ومن أهم المؤلفات التى تم اختيارها لتكون محوراً لهذه الدراسة ، وتقوم كشاهد علي الاهتمام بالخطاب الموازي في البلاغة العربية ، كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب البديع لعبد الله بن المعتز ، وكتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى وكتاب أسرارالبلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ، وكتاب التبيان في علوم البلاغة لحسن الطيبى ، وكتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الاثير، وبديع القرآن لابن أبى الإصبع المصرى، وربما نعرج على بعض المؤلفات البلاغية التى لم نذكرها إذا وجدنا أن البحث يحتاج إليها ، أو وجدنا أنفسنا نتحدث عن ظاهرة، وتلك الظاهرة لا يكتمل الحديث عن خصائصا ومقوماتها ،إلا بالرجوع إلى بعض الكتب التى لم نذكرها ، ولا نريد أن نستبق الحديث فلكل مقام كلام كما يقولون .

أما عن السمات التى اتسم بها الخطاب الموازى فى البلاغة العربية فإننا نرى أنها سمات عامة ، وسمات خاصة ، وبعبارة أكثر وضوحاً هناك خصائص وسمات ميزت هذه المقدمات أو ذلك الخطاب الموازى في تلك الكتب وهى في الغالب سمات مشتركة ، ونكاد نجد أصحابها ينهجون نهجاً واحدا،وطريقة مشتركة ، سواء فى كتابة متن الكتاب أو تدوين الخطاب والتقديم ، ولاحظنا أن هناك كذلك سمات خاصة اتصف بها كل خطاب ، وتفرد بها عن مثيله ، وكل ذلك سيتضح أمامنا جلياً فى الصفحات التالية :

*** *** ***

من الخصائص العامة التى تصادفنا أو نعثر عليها فى الأعم الأغلب ونحن نتصفح فى الخطاب الموازى الخاص بالكتب التى أشرنا إليها سابقاً ، ونجد أنه يتردد فيما بين مقدمات تلك الكتب ، مايعرف باسم الافتتاحية أو بدء الخطاب ، وغالباً ماتكون تلك البداية بالحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى ، وطلب العون منه والفتح على صاحب هذا الكتاب ومؤلف الخطاب ، وهذه السمة أو تلك الصفة من الممكن أن تدخل فيما عرف بين علماء اللغة والنقد حديثا بالتناص .

فتلك الافتتاحية –علي سبيل المثال–ابتدعها من بدأ التأليف والكتابة في البلاغة العربية ، ثم جاء من أراد أن يكتب في نفس هذا الفن بعده ، فاستحسنها واستجاد كتابتها فى بداية خطابه الموازى ، فصنع مثل صنيعه ، ومشي علي منوال سنته التي أرساها ، وربما أضاف إليها بعض الجمل التي رأي أنها في حاجة إليها، وأنها ستزيدها قبولا وحسناً ،واستمر هذا النهج بين الكتاب وصناع الخطاب حتى صار كالعرف بين الكتاب، والتقليد الذى يحترم بين المؤلفين .

ومن الأمثلة التى نسوقها في ذلك ، وتؤكد علي ماذهبنا إليه ، ما كتبه الجاحظ فى بداية خطابه الموازى الذي كتبه لكتابه القيم (البيان والتبيين) حيث كتب الجاحظ فيه : " اللهم إنا نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن ، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ، ونعوذ بك من السلاطة والهزر ، كما نعوذ بك من العِيِّ

والحَصَر ، وقديما ما تعوذوا بالله من شرهما ، وتضرعوا إلى الله فى السلامة منهما .(٣٥)

وهذه الافتتاحية أو هذا الدعاء والابتهال الذى بدأ به الجاحظ ، يمكن أن نسجل من خلاله بعض الملاحظات ، والتى ينم عنها هذا الدعاء ، ومن ذلك أن الجاحظ أدخل فى دعائه وفي طلبه للعون من الله ما يعرف بالوعى الجمعى ، أو استحضار الجماعة فى دعائه ، فتلاحظ أنه لم يفرد نفسه بالدعاء ، أو لم يخص شخصه بتمني عدم العجب والتكلف ، لذا تراه يقول بلفظ الجماعه : " اللهم إنا نعوذ بك ...لما لانحسن ... ونعوذ بك... كما نعوذ بك . "

كما نلاحظ أن الجاحظ خصص دعاءه وابتهاله إلى الله سبحانه وتعالى ، فيما سيصنعه ، أو ماهو ماثل أمامه من عمل سيشرع فيه ، فهو بصدد التأليف والكتابة وسرد المادة العلمية التى تخص كتابه الذي ينوي تأليفه وكتابته ، لذلك جاء دعاؤه وتضرعه موافقاً لحاله وعمله ، فتراه أولاً : يتعوذ من أن يأخذه العجب والكبر والاستعلاء على الناس ؛ لكونه سيصير مؤلفاً للعلوم ، كاتباً للكتب ، مشاركاً في الحياة العلمية والثقافية فى عصره ، ثم تراه يتعوذ بالله ويستعين به أن يصيبه عجز عن الكتابة أو عن الكلام أو حصر عن التأليف ، وكأنه أصبح كأحد التجار الذى يعرض تجارته فى السوق ، فيطلب من الله لها الرواج ، والقبول من الناس ، ويطلب أيضاً لنفسه الربح والتيسير فى بيعه وشرائه .

ومن أجل ماتقدم نلاحظ أن الجاحظ يعيب على كل من كتب أو ألف أو تكلم قديماً ولكنه لم يتعوذ من الحصر أو العِيِّ ، ثم نراه يستحضر بعض الأبيات الشعرية لمن سبقوه ، والتي يتعوذون فيها من العى والعجز عن الكلام ؛ وليبين من خلالها أهمية الدعاء ، وطلب العفو والاستعانة بالله على كل مايعيقه عن إتمام عمله .

فيذكر لنا : " قول النمر بن تولب ، ذلك الشاعر المخضرم : {الكامل}

أعِذْنِى ربِّى منْ حَصَرٍ وعِىٍّ ومنْ نَفْسٍ أُعَالِجُهَا علاجاَ

وقال الهذلي : {الكامل}

ولاحَصِرٌ بخطبتِه إذا ماعَزَّت الخُطَبُ

٠٠٠: ومما ذموا به العي قوله : {الطويل}

وما بِيَ من عِىٍّ ولا أنْطِقُ الخَنَا

إذا جمع الأقوامَ فى الخَطْبِ مَحْفَلُ "(٣٦)

ومما نلاحظه أخيراً على الجاحظ ونحن نشير إلى خطابه الموازى ، أنه إذا كان اهتم بالدعاء لنفسه ولمن ينهج منهجه من الناس والكتاب والعلماء ، فإننا نرى الجاحظ فى كتابه الآخر المعروف بكتاب الحيوان، لم يهتم فى تمهيد هذا الكتاب أو في نصه الموازى القصير، بالدعاء لنفسه ولاللجماعة التي ينتسب إليها ويروق له الحديث عنها ، ولكننا نراه منشغلاً فيه بالدعاء للغير، ونلاحظ أن هذا الغير الذي خصه بالدعاء ، هو مخاطبه ومتلقيه ،الذى عناه بهذا الكتاب وكان مشغولاً بالرد عليه ،ويبدو

أن الجاحظ فعل ذلك لأمر يخص الكتابة والتأليف ، والعلم والعلماء وما يدور بينهم في مثل هذه الأمور . (٣٧)

وإذا انتقلنا إلى ابن المعتز وإلي ما كتبه من خطاب موازٍ لكتاب البديع ، فإننا نفاجأ أنه لم يلتفت إلى أمر الدعاء والاستفتاح لنفسه ولا لجماعته ، ولم نلحظ عليه أنه تأثر بالجاحظ في هذه الجزئية ،على الرغم من سبق الجاحظ له في التأليف ، وثبوت تتلمذ ابن المعتز على يده ، ويبدو أنه فعل مافعله الجاحظ في مقدمته لكتاب الحيوان ، لذا رأينا ابن المعتز كان أكثر انشغالاً بتقديم مادته العلمية ومايحويه كتابه ، للرد علي من اتهم جماعة الشعراء الذين ينتسب إليهم ، وكما أشار هو إلى ذلك في خطابه الموازي ، وماسوف نبينه فى حينه .(٣٨)

وإذا انتقلنا إلى عالم أخر من علماء البلاغة لنرى افتتاحية خطابه الموازى ، ومدي تحقق التناص بينه وغيره من العلماء ، فتجد مثلاً أبا هلال العسكرى يبدأ نصه بالحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى ، ولكنه زاد عن الجاحظ في ذلك ، بأن التفت إلى ضرورة الصلاة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكذلك على آله وصاحبته ، فيقول : " الحمد لله ولى كل نعمة ، وصلواته على نبيه الهادى من كل ضلالة ، وعلى آله المنتجبين الأخيار، وعترته المصطفين الأبرار ." (٣٩)

وعندما ننعم النظر فيما كتبه من أطلق عليه العلماء إمام البلاغة في خطابه الموازي ، تجد أن عبد القاهر الجرجانى كان مقلاً فى دعائه وافتتاحيته ، فلم يأت منها إلا بسطر واحد، ثم انتقل مباشرة إلى حديثه عن الكلمة والكلام والبلاغه وبقية مضمون الكتاب ، حيث يقول : " الحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد النبى وآله أجمعين ."(٤٠)

وإذا تركنا تلك الفترة الزمنية المتقدمة في التأليف في البلاغة ، وذهبنا إلى الفترة التى أطلقوا عليها عصر النضج فى التأليف وفى الكتابة في علوم العربية كلها ، وهو عصر اكتمال أركان العلم، وتمام فروعه وأصوله ، وهو القرن السابع الهجرى ، فنجد تطوراً ملحوظاً في كتابة الخطاب الموازي ، بل إنك تلحظ أن التطور لحق كل شيء يتصل بالعلم وبالكتابة ، فنري علي سبيل المثال ما كتبه أحد علماء تلك الفترة وهو يقدم لكتابه عن البلاغة العربية والذي سماه {المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر} فنرى ضياء الدين بن الأثير صاحب هذا الكتاب ، يتوسع بعض الشيء في خطابه الموازي ، ويرسي فيه بعض المقومات التي لم تكن موجودة من قبل ، فيتوسع في افتتاحيته ودعائه توسعا ملحوظاً ، وإن كنا نستشف من خلال تلك الافتتاحية أنه يلتقي مع الجاحظ ، وأنه حدث بينهما مايشبه التناص فى الدعاء والاستفتاح وطلب العون من الله –سبحانه– فتراه يبدأ خطابه الموازي بقوله : " نسأل الله ربنا أن يبلغ من الحمد ما هو أهله ، وأن يعلمنا من البيان ماتقصر عن مزية الفضل وأصله ،وحكمة الخطاب وفصله ورغب إليه أن يوفقنا للصلاة على نبينا ومولانا محمد رسوله ، الذى هو أفصح من نطق بالضاد ،ونسخ هديه شريعة كل هاد،وعلى آله وصحبه . " (٤١)

فالجاحظ إذا كان في مقدمته استعاذ بالله من العجز والحصر ، وابتهل بما يفيد أن يلهمه الله طلاقة اللسان وحسن البيان ، وهو نفس المعنى الذى يردده ابن الأثير، وإن كان بأسلوب مغاير ، فتجده يطلب من الله أن يعلمه البيان وحكمة الخطاب ، وفصل الكلام ،ثم تراه يتفضل علي الجاحظ بطلب الصلاة والسلام على نبيه وآله وأصحابه ،وإن كنا نلحظ أن أباهلال

العسكري سبقه إلي الوعي بإيراد الصلاة علي النبي في خطابه الموازي ، وكما سبق أن بينا أثناء حديثنا عن افتتاحية أبي هلال، وهذا قد يرجح لدينا أن ابن الأثير نقلها ، أو لنقل حدث بينه وبين أبى هلال العسكرى تناص وتأثر في مثل هذه المعاني .

وإذا كنا نتحدث عن التناص وعن مدى تحققه بين علماء البلاغة فى دعائهم واستفتاحياتهم في خطابهم الموازى، فإننا وجدنا أن التناص تحقق بينهم مرة أخرى وهم يوضحون فضل العلم الذى يكتبون فيه، وقيمته للسان العربى ، ولمتعلمي البلاغة بصفه خاصة ، ويظهر ذلك جليا وهم يشيرون إلى ماتميز به كتاب كل واحد منهم ، ومماالذي اختص به دون سواه ، وما الجديد الذى قدمه خدمة للعلم والفن ، الذى يكتب فيه ، وخدمة لمن يريد أن يرقي فى سلم تعلمه والاستزاده من أصوله وفروعه.

فكتاب بديع القرآن الذى اهتم فيه صاحبه بإظهار ما فى القرآن الكريم من فنون بلاغية ونكات أسلوبية ،نجده فى الخطاب الموازى الذى قدمه لهذا الكتاب يذكر أفضلية هذا العلم وأهميته لفهم القرآن الكريم والخطاب العربى عامة ، فيذكر أنه أجهد نفسه وأعمل عقله، ولازم كتب السابقين طويلاً حتى أخرج لنا هذا العمل ، واستطاع أن يضيف بعض الفنون إلى هذا العلم واستنبط أبواباً جديدة لم يسبقه إليها أحد ، وكل ذلك من أجل خدمة هذا العلم ؛ لقيمته ومنزلته وأهميته بين علوم العربية.(٤٢)

وعندما نتحرك قديماً وحديثاً بين العلماء الذين كتبوا فى البلاغة العربية سواء قبل ابن أبى الإصبع أو بعده ، سنجد التأثر والتناص واضحاً جلياً بين هؤلاء العلماء فى تلك المسألة .

فالعلوى صاحب كتاب الطراز والذى عاش بعد ابن أبى الإصبع بحوالى قرن من الزمان ، يكتب فى خطابه الموازى مشيراً إلى مزية علم البلاغة وعلم البيان بخاصة عندما يقول : " أما بعد : فإن العلوم الأدبية ، وإن عظم فى الشرف شأنها ٠٠٠فإن علم البيان هو أمير جنودها وواسطة عقودها ٠٠٠ولولاه لم ترَ لساناً يحوك الوشى من حلل الكلام ٠٠٠وكيف لا وهو المطلع على أسرار الإعجاز والمستولى على حقائق علم المجاز . " (٤٣)

ويبدو أن هذين العالمين قد تأثرا بالجاحظ أو حدث بينهما وبينه تناص فى بيان أهمية البيان وما يتصل به من فنون بلاغية وبديعية ، ومعروف أن الجاحظ كان له سبق العيش وكذلك سبق التأليف عنهما ، فقد سبقهما بذكر فضل البيان وقيمته للسان العربي ، وتراه يستشهد بما ذكره الله –سبحانه وتعالى – في كتابه الكريم ، مدحا للبيان وإظهاراً لفضله فى الحديث والكلام ، فيقول : " وذكر الله تبارك وتعالى جميل بلائه فى تعليم البيان ، وعظيم نعمته فى تقويم اللسان ، فقال تعالى : {الرحمن علم القرأن ، خلق الإنسان ، علمهُ البيان }٠٠٠ ومدح القرآن بالبيان والإفصاح وبحسن التفصيل والإيضاح ٠٠٠وقال:{عربى مبين}."(٤٤)

والعسكرى هو الأخر حدث بينه وبين من قبله ومن بعده تفاعل وتناص فى الإشارة إلى أهمية علم البيان وضرورية علم البلاغة للسان العربى ؛ لذا يشير إلى تلك الأهمية والمكانة عندما يقول : " إن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة ، لم يقع علمه بإعجاز القرأن ٠٠٠فينبغى أن يقدم التباس هذا العلم على سائر العلوم ، بعد

توحيد الله تعالى٠٠٠ولهذا العلم بعد ذلك فضايل مشهورة ومناقب معروفة ، منها أن صاحب العربية٠٠٠ إذا أراد أن يصنع قصيدة ،أو ينشئ رسالة ، وقد فاته هذا العلم ، مزج الصفو بالكدر وخلط الغرر بالعرر ، واستعمل الوحشى بالعكر، فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل . " (٤٥)

ومما نلاحظه علي أبي هلال فى الجزء الذى أخذناه من خطابه الموازى السابق ،ويسجل له ، أنه لم يشر فيه إلى أهمية علم البلاغة ، وفائدته فى فهم الخطاب العربى وكيفية التعامل معه فحسب ، بل نراه أيضا يشير إلى المعايب والمآخذ التى توجه إلى من يتعامل مع الخطاب العربى وهو مفتقد لعلم البلاغة ، أوغير ملم بأسرار الفصاحة ، فهذا الشخص قد جعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة لكل مطلع وقارئ على حد قول العسكرى .

ولا ينسى إمام البلاغة عبدالقاهر الجرجانى ، في خطابه الموازي أن يشارك فى بيان فضل علم البيان، ويتجاوب مع من قبله ، ويتأثر به من بعده ، ويتم بينهم ماسميناه بالتناص، فتراه يشير إلى قيمة علم البيان فى قوله : " ثم إنك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً ، وأبسق فرعا، وأحلى جنى ،وأعذب وِرْداً ، وأكرم نتاجاً وأنور سراجاً ، من علم البيان ، الذى لولاه لم ترَ لساناً يحوك الوشى ، ويصوغ الحلى ، ويلفظ الدر ، وينفث السحر، ويقرى الشهد . " (٤٦)

ولم يكتف عبدالقاهر الجرجانى في هذا النص أن يقدم لنا أهمية علم البيان ، ولكن زاد على ذلك بأن أظهر قيمتة فى الكلام ، وأثره على من فهمه واستوعبه ، وتعامل به فى أساليبه وخطابه ، فقد جعل البيان

صاحبه لاينطق بالكلمات ولا المفردات ، ولكنه جعله يلفظ بالدر ، ويصوغ الحلى وينفث السحر من الكلام ،كما أثبت الجرجاني ذلك .

وقبل أن نختم الكلام فى مسأله التناص بين كتاب الخطاب الموازى فى البلاغة العربية ، نود أن نشير إلى ما يؤكد شيوع التأثر بين هؤلاء العلماء ، وتحقق التناص فى أساليبهم ومعانيهم التى تناولوها ، وذلك فى إشارة أحد العلماء صراحة ، أنه اعتمد على كلام من سبقهُ ، واستعان فى تأليف كتابه بكتب ومؤلفات العلماء قبله ، فيقول: " وكتابي إذا تركتَ المراء ، واتبعتَ الهدى، قلتَ :هو بديع فى إغرابه، وإذا رمقت بعين الرضى وجانب الهوى ، خلته مفرداً فى بابه ؛ لما ضمنته من مباحث {المفتاح} ماكان أصولها ، ومن منافث{الكشاف}ماآخر محصولها ، ورشحته بما فى{المصباح والإيضاح}من النوادر، ورشحته بزبدة النهاية {والمثل السائر} وعقلت ما شذ على بعضهم من الأوابد٠٠٠ولم آلُ جهداً فى الترصيف والتنقيح والتوفير من المباحث مع التوضيح . " (٤٧)

ومما يبعث علي العجب في هذا النص السابق ، أننا نري صاحبه وهو{الطيبى} ينهج نهجاً غريباً في تلك المسألة ، حيث نجده يلزم نفسه بأن يذكر الكتب التى اعتمد عليها ، ويبين أن هذا النهج هو الأحق بالاتباع ، وأنه يدل على ترك المراء وعدم إخفاء الحقيقة ، واتباع الصدق والهدى ، ولا ينسى وهو يذكر الكتب التى اعتمد عليها وتأثر بها ،أن يذكر لنا الجهد العظيم والقيمة العلمية الفريدة ،التى أضافها إلى هؤلاء العلماء ، وتميز بها كتابه هو الآخر .

المحور الثالث : احتضان الخطاب الموازى للمتلقى

==========

وفضل الباحث أن يختار عنوان احتضان الخطاب الموازى للمتلقى ، وذلك لبيان مدي اهتمام هذا الخطاب بالمتلقي ،وبيان احتفاء أصحابه بذلك المخاطب الذي يوجهون إليه حديثهم ومؤلفاتهم ، فأنت عندما تطالع كثيراً من المقدمات التى كتبها أصحابها لمؤلفاتهم البلاغية ، تقرأ العبارات العديدة التي تدلك علي اهتمامهم بالمتلقى ، بل الإشادة به وبمكانته وأهميته للعلم الذي ينتجونه ، ويؤلفون فيه ،وإن كنا نلاحظ أن هذا الاهتمام أو الاحتفاء ،تنوعت طرقه وأساليبه .

وأول تلك الاهتمامت بالمتلقى التي وردت في تلك النصوص، مايمكن أن نسميه بالاهتمام غير المباشر، أو اهتمام صاحب الخطاب بالمتلقى ، بأسلوب ربما لم يقصد من ورائه ذلك ،أو دون أن يشير إليه صراحة ، فالخطاب الموازى الذى يكتبه عالم البلاغة لكتابه مثلاً ، معروف أنه قصد به أن يثير وجدان القارئ ،وينقله إلى عالم التصور والتخيل ، بما فى العمل الذى سيقبل المتلقي على قراءته وتناوله ، بل إن هذه المقدمات تسهم مما لا مجال فيه من الشك ، فى توجيه الكيفية التى سيقرأ بها المخاطب محتوى الكتاب أو النص الأصلى ، إن لم تكن تنظم له عملية القراءة ، ومثل هذه النصوص

تساعد أيضاً على تهيئة القارئ أو المتلقى لعملية القراءة ، وتشكل لديه عوامل الاستعداد لتناول هذا العمل وفهمه واستيعابه . (٤٨)

وفي بعض الأحيان يقوم كاتب الخطاب الموازى بافتراض مخاطباً أو متلقياً لخطابه ، وقد يكون هذا المتلقى من صنع المؤلف أو من صنع خياله ، فهو متلق متخيل ، ويفترض المبدع وجوده ؛ ليكمل من خلاله المؤلف الحلقة أو عملية الكتابة أو التأليف التى لابد لها من مستقبل ، ليستقبل هذا العمل ،لعله يستوعبه ، وينتفع بما فيه ،ويذكر قيمته وأهميته للفرد وللمجتمع .

وبالتأكيد فإن الذى يجعل المؤلف يفترض ذلك المتلقى، أو القارئ المتخيل ، لما يري له من دور فى تحديد معنى النص وتفسيره،وبيان أركانه ومقوماته ، كما يذكر الدكتور حمودة . (٤٩)

ونلاحظ أن بعض الذين كتبوا الخطاب الموازى أظهروا اهتماماً كبيراً بذلك المتلقى المفترض أو المتخيل ، وأصبح لديهم وكأنه واقع وحقيقة ؛ لذا نري واحداً منهم يعقد حوارا متخيلاً معه ، فيوجه إليه كلامه أو حديثه وبعض الأسئلة ،ثم ينتظر منه الإجابة والتواصل أو إكمال الحوار ، ومثال ذلك ما نراه عند الآمدى، الذي أقام حواراً متخيلاً بين أنصار البحتري وأنصار أبي تمام ، وقد صنع الآمدى هذا الحوار المتوهم ؛ ليتسني له من خلاله طرح أفكاره وآرائه التى يؤمن بها تجاه الشاعرين ، ويريد نقلها إلي القارئ ، والمهتمين بأمرهما . (٥٠)

ومن صور الوعى بالمتلقى فى خطاب البلاغة الموازى ما تراه عند أبى هلال العسكرى حيث يبدأ كلامه باستحضار ذلك المتلقى الكائن أمامه ، أو المتخيل، فيوجه إليه حديثه في قوله : " اعلم علمك الله الخير، ودلك عليه ،وقيضه لك ،وجعلك من أهله . (٥١)

وواضح من كلام العسكرى أنه لايبدى احتفاءً بالمتلقى ،أو يعلن عن حضوره فى حواره وخطابه فحسب ،ولكننا نراه يعبر ببعض الجمل التى تظهر أنه تجاوز هذا الاحتفاء وذلك الوعى بوجوده ، بأن أخذ يتوجه بالدعاء له بأن يتنبه لكلامه ولخطابه ،وأن يعمل جاهداً على الإحاطه بما سيطرحه عليه من علم ، ودليلنا علي ذلك، تلك الجملة التي بدأ بها ، وهي{اعلم} ويبدو أن العسكرى خشى أن يفهم من يقرأ كلامه، أو المتلقي نفسه، أنه يحادثه بشدة وجفاء ، كما هو معروف من دلالة فعل الأمر، لذلك تجده يتبع جملة الأمر بعبارة توحى بحنوه على المتلقى ، وتومئ أيضاً إلى معنى الالتماس الذى هو من معانى الأمر المجازية ، كما يقول علماء علم المعانى ، ولتأكيد المعني الذي نذكره ، تلاحظ أن العسكري لم يتبع جملة الأمر بعبارة واحدة ، ولكنها أردفها بعدة عبارات ، كلها توحى بالتودد وحب الخير لذلك المتلقى .

ولم يكن العسكرى هو صاحب السبق فى الدعاء للمتلقى ،والتودد له ، ولكننا نجد أن الجاحظ سبقه إلي ذلك ، بل إنه سبقه أيضاً بكونه لم يشر إلى المتلقى فى موضع واحد ، ولكنه استحضره ودعا له واحتفي به فى مواضع متعددة فى خطابه الموازي الذي كتبه لكتابه

(البيان والتبيين) ؛ لذا تراه يبدأحديثه أولاً بالإشارة إلى المتلقى بأسلوب مقتضب ذى دلالة خاصة أرادها الجاحظ ، وذلك عندما يقول : " وليس حفظك الله مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة، بأعظم مما يحدث عن العى من اختلال الحجة "(٥٢) .

فهو يبين أن الذلات والأخطاء التى يقع فيها الخطيب نتيجة الإطالة فى الكلام مما يتسامح فيه عندما نقيس ذلك بما يقع من العَيِيِّ ، فاقد الحجة أومع من استولى عليه العجز،وتلاحظ أن الجاحظ أراد أن ينبه مخاطبه إلى ذلك ،ولكنه ينبهه إليه بأسلوب تستشعر فيه التودد ، والمحافظة علي أحاسيس المتلقي ومشاعره،وهو مانفهمه من دعائه له في قوله : {وليس حفظك الله}

ثم يعاود الجاحظ الانتباه إلى المتلقى والاهتمام به والدعاء له مرة أخري فيقول : " ثم اعلم أبقاك الله أن صاحب التشديق والتقعير والتقعيب من الخطباء والبلغاء٠٠٠ أعذر من عَيِيٍّ يتكلف الخطابة ، ومن حَصِرٍ يتعرض لأهل الاعتياد والدُّربة . " (٥٣)

وكأن الجاحظ بهذه العبارة ، لا يتودد إلى المتلقى فقط ، ولكنه أصبح كالملح الذي يخشي علي مخاطبه ، أن يسلك تلك المسالك من الخوض فى الكلام والخطابة مع العجز والحصرة ، ولذلك تراه يعود مرة أخرى إلى نفس الدعاء ، ونفس النهج من الخوف على المتلقى وتحذيره من الوقوع فى مثل هذه الأخطاء، فيقول : " فالحصر

المتكلف والعيى المتزيد ألوم من البليغ المتكلف٠٠٠فمن أسوأ حالاً- أبقاك الله- ممن يكون ألوم من المتشدقين . "(٥٤)

وإذا انتقلنا إلى أحد المتأخرين الذين ألفوا فى البلاغة العربية من علماء القرن السابع الهجرى ، سنجد ضياء الدين بن الأثير يبدى أكثر احتفاء بالمتلقى ، بل إنه يظهر لنا مدى حرصه على أن يفيد ذلك المتلقى مما يقدمه من علم ،وأن ينظر فى كتابه مرة بعد مرة ، وأن يعمل فيه عقله وقلبه وصدره ، فتراه يقول : " واعلم أيها الناظر فى كتابى ، أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم ، الذى هو أنفع من ذوق التعليم، وهذا الكتاب وإن كان فيما يلقيه إليك أُستاذاً ، وإذا سألت عما ينتفع به فى فنه ، قيل لك هذا ، فإن الدُّربة والإدمان أجدى عليك نفعاً٠٠٠وهما يريانك الخبر عيانا ، ويجعلان عسرك من القول إمكاناً ، وكل جارحة منك قلباً ولساناً ، فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك واستنبط بإدمانك ما أخطأك ، وما مثلى فيما مهدته لك من هذه الطريق ، إلا كمن طبع سيفاً ، ووضعه فى يمينك لتقاتل به . " (٥٥)

وظاهر من كلام ابن الأثير أنه يسعي لتحديد المتلقى الذي يعنيه ،ألا وهو الذى يختص بالنظر فى كتابه ،وقراءة كلامه ؛ لذا ينصحه ، أولنقل يتلمس إليه أن يمعن النظر ؛ ليحيط علما بما فى الكتاب ، ثم تراه يلفت نظر المتلقى إلى أنه إذا أراد علماً شافياً فى مجال البلاغة والبيان ، فهذا الكتاب هو الأستاذ فى هذاالعلم ،ومن أجل ذلك يؤكد عليه فى عبارة بعد عبارة وجملة بعد جملة أن يستفيد مما فيه ، وألا

يتخطاه إلى سواه ، وأن يسخر كل جوارحه ؛ حتى تكتمل الفائدة من هذا الكتاب وما حواه من علم.

ونلاحظ أن الاهتمام بالمتلقي والإشادة بدوره ، وحثه علي الاستفادة مما يكتبه أصحاب الخطاب الموازي، لم يكن هو السمة الغالبة عند هؤلاء، لأننا نجد الأمر مغايراً لذلك في بعض النصوص والمقدمات، فبعض أصحاب هذا الخطاب لم يشيروا إلي المتلقي مجرد إشارة لامن قريب ولا من بعيد ، وبعضهم اكتفي بمجرد الإشارة السريعة إليه ، وبعبارة خاطفة ، مثلما نجده عند العلوى عندما نقرأ الخطاب الموازي لكتاب الطراز ، نجده لايشر إلى المتلقى أوالمخاطب الذى يقدم كتابه له ، ويعنيه بمطالعته ،ولو بكلمة واحدة أو عبارة قصيرة .

والأمر قريب من هذا إذا نظرنا في مقدمة كتاب دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجانى ، فتراه يشير إلى المتلقى مجرد إشارات سريعة فى ثلاثة مواضع في ذلك الخطاب ، فى المرة الأولى يشير إليه بضمير الخطاب الكاف ، وهو يبين فضل العلم الذى يكتب فيه ، عندما يقول : " فهذا فى فضل العلم ، لا تجد عاقلاً يخالفك فيه ،ولا ترى أحداً يدفعه٠٠٠فإنك ترى الناس فيه على آراء مختلفة٠٠٠ثم إنك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً، وأبسق فرعاً٠٠٠من علم البيان.(٥٦)

والذى جعلنا نذهب إلى أن عبدالقاهر قد أشار إلى متلقيه مجرد إشارات دون إظهار أي نوع من الحفاوة به ؛ أنك تراه في خطابه له ،لا يحمل تودداً أو اهتماماً بذلك الذي عناه بحديثه وكتابه ، وتجد أيضا أن عباراته لاتحوي عبارة دعاء له كمن سبقه ،ولكنه استعان بمخاطبه أو لنقل أشار إليه ؛ ليبين من خلال توجيه الحديث إليه ، إلى أهمية العلم الذى يكتبه أو الكتاب الذى يؤلفه ويخرجه .

وعندما ننتقل إلى خطاب ابن المعتز سنجد الأمر مخالفا تماما لما انتهجه عبدالقاهر في التعامل مع المتلقي، ولذلك إذا أردنا أن نفهم منهج ابن المعتز فى التعامل مع المتلقى سنذهب إلى ما ذهب إليه البعض من منهج استنطاق النصوص ؛ حتي نستأنس بما فيها من معانٍ تعبر عن المتلقي ، ولأن العلماء وضعوا مفهومات متنوعة للتعامل مع المتلقى واستشعار وجوده داخل الخطاب الأدبي ، ومنها استحضار أفق التوقعات ، وكلها سبل لمعرفة ذلك المتلقى الذى لم يصرح به ، أو يذكر صراحة داخل النص . (٥٧)

فعند قراءتنا للخطاب الموازي لكتاب البديع ، سنري أننا لانفتقد مجرد الإشارات إلى المتلقى فيه فحسب، ولكننا نراه يتعامل معه بأسلوب ينم عن عدم الاكتراس به ، أو أنه ضاق منه ذرعاً ،وأصبح لايطيق مجرد ذكره أو الإشارة إليه ؛ لأنه عندما أراد أن يعبر عن المتلقى عبر عنه بأسلوب المجهول أو الإنكار ؛ حيث قام ببناء الفعل المجهول، في الجملة الوحيدة التي أومأ إليه فيها ؛ ويبدو أن ذلك يرجع إلي أن ابن المعتز كان متبرماً من هؤلاء الذين وجه {كتاب

البديع} إليهم ، وعناهم بما فيه ، وهم علماء اللغة ومن سار علي دربهم في عصره ، الذين كانوا ينالون من شعراء الحداثة الذين ينتسب إليهم ابن المعتز ، فقد عاب هؤلاء على شعراء البديع الذين ازدهر شعرهم في زمن ابن المعتز ، والذين عرفوا باحتفائهم بفنون البديع وشيوع صوره وأساليبه فى أشعارهم ، دون غيرهم من شعراء عصرهم ؛ لذا اتهمت أشعارهم بالخفة والضعف ، والخروج عن المألوف من شعر العرب .

يقول ابن المعتز مبيناً الغرض الذى من أجله ألف كتاب البديع : " هذا ما وجدنا فى القرآن واللغة وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم ، ...ليُعْلَمَ أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ، ومن تَقَيَّلَهُم وسلك سبيلهم ، لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر فى أشعارهم . (٥٨)

فابن المعتز كما هو واضح من هذا النص ، لم يشأ أن يصرح بالمتلقى ولو بكلمة واحدة ، أوبمجرد ضمير من الضمائر التي تعبر عنه ، ولكنه اكتفى ببناء الفعل للمجهول ؛ لإخفاء الفاعل الذي يخاطبه ويلقي حديثه إليه ، فقال:[لِيُعْلَمَ] وكأنه يقول ليعلم من يريد أن يعلم من هؤلاء ، الذين يعيبون على الشعراء المحدثين وأصحاب البديع، وذلك إشارة منه إلى مدى تبرمه منهم، لدرجة أنه لايريد مجرد الإشارة إليهم وهو يخاطبهم، أو يعنيهم بحديثه .

المحور الرابع : المبدع والإبداع فى الخطاب الموازى

==========

للمبدع فى حياتنا الثقافية والعلمية أهمية خاصة، لا نستطيع أن نغض الطرف عنها، أو نقلل من شأنها، فهو ذاك الإنسان الذى يفاجئنا بالطرائف في حياتنا ، ويرتاد بنا ولنا مجالات فكرية وثقافية وعلميه قد لا يكون لنا بها سبق معرفه أو إحاطة.

فالمبدع إنسان صاحب تكوين خاص، وعقلية فذة ، ونفس مهيأة ، لذا كان باسطتاعته أن يقدم شيئاً جديداً ، فى لحظة من لحظات إبداعه ، أو في أوقات تفاعله مع فكر أوعمل معين، وذلك العمل الذي يقدمه ، أو لنقل يبدعه ،يحاول أن يعيد فينا من خلاله صياغة رؤي إنسانية جديدة، أو تقديم تلك الرؤى فى شكل جديد أو صياغة متفردة تميز شخصه وإبداعة . (٥٩)

وإذا كان المبدع بما يقدمه لنا يحتل مكانة مرموقة في حياتنا ويمثل لنا قيمة عالية ويحظى باهتمام الناس، وباهتمام الفريق الذى يولى إبداعه وإنتاجه أهتماماً خاصاً، ولكن يجب عليه هو الآخرأن تكون لديه القدرة على إدراك خبرته الذاتية ، وأن يكون على وعى بمشاعره وأحاسيسه، وأن يعلم أنه مؤهل للإبداع ومواجهة الأعمال التى ألزم نفسه بها ، وأراد أن يكون من أعلامها ورواداها . (٦٠)

ويبدو أن السبب وراء الذين اشترطوا على المبدع مثل هذه الاشتراطات السابقة، ما ذكره (جيلفورد) وهو يرسي دعائم الإبداع ، واشتراطات المبدع ، ويبين أن الإبداع لابد وأن يستند إلى سمات مزاجية ،تنبني على التفاؤل والثقة بالنفس ،وأن يكون المبدع صاحب شخصية عصبية، ولديه القدرة على الاختراع والتصميم والتأليف والتخطيط.(٦١)

وهذه القدرات التى يجب أن يتمتع به المبدع لاتغنيه عن الموهبة الفطرية أو المقدرة الطبيعية على الإبداع ، وعلي ارتياد الجديد، لأن تلك الموهبة هى التى يستند عليها المبدع وتخلق لدية القدرة على اكتساب الخبرات، أو القدرات الخاصة بالفن الذى سيبرع فيه، أو يتفاعل معه،وتلك الموهبة لايمكن اكتسابها بالتعلم والمران ، وهى أيضاً ليست وليدة اللحظة الإبداعية، أو فورة إلهام وقتى ، ولكنها جزء لا يتجزأ من تكوين المبدع ، وما فطر عليه ونشأ فيه ، وهى التى يطلق عليها البعض اسم العبقرية ، أو أن صاحبها أصبح عبقرياً . (٦٢)

وعندما نريد أن نكتب عن مبدع الخطاب الموازى فى البلاغة العربية ،وعن جهده الإبداعى يتحتم علينا أن نطرح هذا التساؤل ،ألا وهو، هل توافرت لدى هذا المؤلف أو كاتب هذا الخطاب ، أدوات الإبداع ، واتسم عقله وفكره بسمات المبدع وخصائصه ؟ وعليه لو تحقق له ذلك ، فهل اتصف ثانية ما قدمه لنا فى ذلك

الخطاب بخصائص التفرد والجدة ، التى تميز الإبداع ،وتعتبر من أهم خصائصه ؟

وللإجابة على هذا السؤال ، يكون لزاماً علينا أن ننظر إلى بعض كتابات مؤلفى الخطاب الموازى؛ لنرى هل فطروا علي الإبداع وجبلوا علي معايشته ؟ ولنعرف مدى إدراكهم لتلك المسائل التى تتصل بالإبداع، وتتطلب منهم مراعاة أصولة وقواعده .

فمحمد بن على الجرجانى يبين لنا عظم ما يصنعه عند الكتابة ، من إعمال فكره وشحذ قريحته ، ووضع عقله وقلبه وكل جوارحه ، لتكون مهيأة للتأليف ،وخادمة للإبداع ،عندما يقول : " ولذلك صرفت عنان عزمي فى هذه الإشارات والتنبيهات إلى هذا الميدان ، وركبت متن جواد الفكر، وسقته بسوط توفيق الله المنان إلى تحقيق تقرير قواعد الصناعة ، وانتقاد أقوال أهل البلاغة والفرسان ، مع قلة البضاعة . " (٦٣)

فالجرجانى يعلن لنا فى كلامة عن عزمة على تجهيز نفسه وعقلة وركوب جواد الفكر ، الذى استخدم له سوطا ليطوعه ويوجهه إلى حيث أراد ؛ وليجنى منه ماشاء، ولكن هذا السوط سوط من نوع معين ، وهو الاستعانة بالله وطلب العون منه والتوفيق على إتمام ما أراد، وطلب العون والتوفيق من الله تعد لفتة طيبة من هذا العالم الذى لا يدعى المقدرة المطلقة على الإبداع ، والتمكن الكامل من التأليف ، إلا بعد الاستعانة بصاحب القدرة والكمال ،وموهب

الإمكان علي إتمام الأعمال وإنتاجها وإحكام صنعتها ، ونحن يمكننا أن نعتبرها مقومة أساسية للإبداع ، بل من أهم مؤهلاته ، إن لم تكن كله .

والعسكرى هو الآخر يحدثنا عما يجب أن يتصف به المبدع ،وينبغي أن يتسلح به المؤلف فيذكر أنه لابد وأن يبتعد المبدع عن " الاستكراه والتكلف ، وقال بعض الأوائل : تلخيص المعانى رفق، والتشادق من غير أهله بغض، والنظر فى وجوه الناس عِى، ومس اللحية هلل ، والاستعانة بالغريب عجز ، والخروج عما بنى عليه الكلام إسهاب . " (٦٤)

فلابد للمبدع ألا يكون مكرهاً على الإبداع ولا متكلفاً فيه ، وألا يأتى بأفعال تدل على ضعفه وتردده ، بالإضافة إلي أنه يجب أن يساير طرق الإبداع ومناهج الخطاب ، التى يتحدث فيها وينتج علمه وكلامه على متوالها .

ولم يكن العسكرى وحده من كتاب الخطاب الموازى الذى نبه وتنبه إلي ما يجب أن يلتزم به المبدع ، ولكننا نرى واحداً آخر من المبدعين ، وهو ابن أبى الإصبع ، يؤكد على أكثر من ذلك فيبين أنه عندما أراد التأليف فى البلاغة وبديع القرأن : " توخيت تحرير ما جمعته جهدى ودققت النظر حسب طاقتى ووسعى ، فتجنبت التداخل وتحرست من التوارد، ونقحت ما يجب تنقيحه ، وصححت ما قدرت على تصحيحه ووضعت كل شاهد فى موضعه ."(٦٥)

فلابد للمبدع من التدقيق فى أقواله ، والتنقيح فى جمله وأساليبه ، وتصويب ما يحتاج إلى تصويب ؛ وذلك لأن ما عرف بإلهام المبدع ومقدرته الإبداعية ، وعبقريته فى الإنتاج والإنشاء ، لابد لها من مثل هذه النشاط والاحتراف ؛ لتكتمل العملية الإبداعية ؛ ويخرج العمل المبدع أو الخطاب المنتج في أحسن صورة .

ونفس المعنى من ضرورة التدقيق للكلمات والإحكام للأساليب ، تجد الطيبى يؤكد عليه وهو يبين الجهد الذي بذله وهو يؤلف كتابه التبيان فى علوم البلاغة ، حيث يقول : " هذا وإن كتابى ، إذا تركت المراء واتبعت الهدى، قلت : هو بديع فى إغرابه٠٠٠ورشحته بزبدة النهاية٠٠٠وعقلت ماشذ على بعضهم من الأوابد ، فانقيد للأزمة تلك القواعد الشوارد ، ونظمت فيه من عيون فرائد النثر ودرره ، ومختار قلائد النظم ومحبره ، ولم آلُ جهداً فى الترصيف والتنقيح ، والتوفير من المباحث مع التوضيح ، وأدرجت في تضاعيف ذلك مما هدانى الله إليه."(٦٦)

والطيبى كما هو واضح ، عندما يبين مدي المشقة والمعاناة اللتين يقوم بهما في تأليفه وكتابته ، ينهج نفس النهج الذى انتهجه قبله ابن أبى الإصبع، عندما وضح لنا المعاناة التى يقوم بها منشئ الخطاب ، والراغب فى التأليف ، لأن العملية الإبداعية هى دفاع عن النفس فى المقام الأول ، دفاع عن نفس المبدع أن تتهم بالتقليد أو النقل عمن سبقه بالإنتاج ، وحتي لاتتحول النفس المبدعة إلي متلقية ؛ فتنهدم مكانتها وقيمتها ، ولذلك ذهب أحد المحدثين إلي وصف

الإبداع بقوله : إن " العملية الإبداعية تبدو كأنها دفاع النفس الواعية، ضد قوة حساسية التلقى القاهرة ، التى تعتبرفى جوهرها قوة معادية ، وهى فكرة تقطع طريقاً طويلاً فى اتجاة هدم الفكرة الرومانسية للعبقرية . " (٦٧)٠

فكأن المبدع الصادق فى إبداعه يعيش في معانتين فى وقت واحد، معاناة الإبداع ومايتطلبه من إعمال الفكر، وشحذ القريحة والتدقيق ،وإحكام المعانى ، ومعاناة أخري تتمثل في دفع قوة التلقى ، التى تلقى علية أفكار الآخرين وإبداعاتهم ،وتقدمها له سهلة ميسورة بين يدية .

وإذا كان بعض كتاب البلاغة ومبدعو الخطاب الموازى حدثونا عن معاناة المبدع وما يقوم به لإخراج خطابه إخراجاً جيداً، فإن عبدالقاهرالجرجانى يترك ذلك كله وينبهنا إلى الحديث عن مادة مهمة ، وتتصل في الوقت نفسه بالمبدع والإبداع، الأ وهى مادة الإبداع التى يستخدمها المبدع ، وهى الألفاظ وما يتركب منها من عبارات وأساليب وخطاب ، لذا تراه يركز علي قدرة المبدع فى اختيار كلماته وانتقاء ألفاظه ، التى تؤهله لإنتاج خطاب لايباريه فيه أحد، ولايعيبه قارئ ، فيقول : " فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً، أويستجيد نثراً، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ ، فيقول : حلو رشيق،وحسن أنيق، وعذب سائغ، وخلوب رائع ، فاعلم أنه ليس يُنبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف ، وإلى

ظاهر الوضع اللغوى بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده . " (٦٨)

ففؤاد المبدع وعقلة ومقدرته الإبداعية وعبقريته الإلهامية ، وكذلك موهبته العالية ،هى التى تعينه على حسن اختيار مادة إبداعه ولغة كتابته، وأساليب خطابه وتراكيبه .

وعندما تنتقل إلى خطاب الجاحظ الموازى الذى كتبه عن المبدع والإبداع ، نلاحظ أن له فضل السبق علي عبد القاهر الجرجانى ، فى الحديث عن اختيار مادة الإبداع ، وحسن انتقاء التراكيب والكلام ، فيبين أن المبدع يفضل أحياناً لفظاً على لفظ ، وقد يقدم عبارة على عبارة وإن عانى فى ذلك المكابدة ، وحمل نفسه فوق الطاقة ، فيذكر أنه : " لما علم واصل بن عطاء، أنه ألثغ فاحش اللثغ ، وأن مخرج ذلك منه شنيع ٠٠٠وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل ، وأنه لابد من مقارعة الأبطال بالخطب الطوال ، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب ورياضة ، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج ،وجهارة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة ، وأن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب ،وتثنى به الأعناق ، وتزين به المعانى٠٠٠ ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان ، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة ، رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه ،وإخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ، ويغالبه ويناضله ، ويتأتي

السترة والراحة من هجنه ، حتى انتظم له ما حاول ،واتسق له ما أمل."(٦٩)

فهذا النص الذى يقدمه لنا الجاحظ إذا كان يقصد من ورائه أن يبين ماصنعه واصل بن عطاء ؛ ليتجنب النطق بحرف الراء، بسبب عيب عنده فى النطق ،فإننا نستطيع أن نقول : إن الجاحظ قد أرسى فى هذا النص بعض الأسس التي تتصل بالمبدع والإبداع ، وفي نفس الوقت لم يهمل مادة الإبداع ، بل أشار إلي ما يجب صنعه نحوها .

فالمبدع لدى الجاحظ يقوم بمجهودين ، مجهود يتصل بآلة الإبداع وأدوات الخطاب ، والمجهود الآخر يتصل بنفس المبدع ، حيث تهيأة النفس وإعدادها للإبداع ، واستحضار الوعي والفكر ، لأنه لابد للإبداع من تمييز البيان وسياسة نصوصه ، وترتيب الجمل وترويضها بالإضافة إلي مغالبة الحروف ومكابدة الكلمات ، وكأنه فى معركة معها ، بل إنه يناضل ويساجل الجمل والعبارات ، حتى يروق له منها ما يريده فيختاره، ولتخضع له المعانى ، فتستريح نفسه لما يبدعه ويكتبه ، ومن ثم تميل القلوب لإبداعه وخطابه ، وتتهافت النفوس إلي كتاباته وإنتاجه ، كما بين الجاحظ ذلك . (٧٠)

ويبدو أن الجاحظ كان شديد الاهتمام بمسألة الإبداع وأمر المبدع ، لذا نراه في موضع آخر يؤكد على ضرورة أن يتصف المبدع ببعض الخصائص ،وكذلك يجب أن يتعافي من بعض الخصائص

والصفات التي تنافي الإبداع وتتناقض معه ، فلا بد لمنتج الخطاب الفصيح وكاتبه –في رأي الجاحظ– أن يكون فصيحاً بليغاً ، ولا يكون حَصِراً ولا عَيِّيا ، ومن أجل ذلك تراه يلتمس العذر لصاحب التشديق والتقصير ، ولا يلتمسه للحَصِر أو العَيِيِّ ، عندما يتعرض كل منهما للخطابة أو إلقاء مايبدعه ، فيذكر أن " صاحب التشديق والتقعير والتقعيب من الخطباء والبلغاء مع سماحة التكلف ، وشنعة التزيد أعذر من عيي يتكلف الخطابة ، ومن حَصِريتعرض لأهل الاعتياد والدُّربة . "(٧١)

وتراه فى موضع آخر يستبعد كل من يتصف بصفة تخل بالإبداع ، أو تخرج صاحبها من دائرة طلاقة اللسان وحسن البيان ، كاللجلاج والتمتام والألثغ والفأفاء وذى الحبسة وذى اللفف ، وهو البطئ فى كلام ، وذى العجلة فى حديثه ، وغير ذلك من الخصال التي رأى أنها تنال من فصاحة كلام صاحبها ، وتؤخر رتبته بين أهل البلاغة ، وأصحاب الخطاب .(٧٢)

ثم يعود الجاحظ مرة أخري ليؤكد علي قيمة الفصاحة ، ومدي حبه لأهل الطلاقة والبلاغة ، فيهتم في خطاب البيان والتبيين الموازي بسرد كل ماجاء عن العرب ، ورواه فصحاؤها ، فى شأن مدح أهل الفصاحة وأصحاب البلاغة وأرباب البيان ، ويروى أيضاً الكثير من المأثورات التى وردت عن العرب ، من أشعار وحكم وأمثال ؛ ذماً لأصحاب الحصر ولأهل العي ، ومن أجل كل ذلك نري الجاحظ يحتفى طويلاً بإبراز ما ورد فى القرآن الكريم مدحاً لطلاقة

اللسان وحسن البيان ، كما جاء مثلاً على لسان سيدنا موسى عندما توجه إلى ربه أن يشرح صدره وييسر أمره ،ويحلل العقدة والحبسة التى فى لسانه ، وطلبه ثانية من الله أن يعينه بأخيه هارون ' ليس بقوة بدنه وشدة بأسه ، لكن لأمر يتصل بالبيان والبلاغة ، حيث إن هارون أفصح لساناً منه وأكثر بياناً ،وأظهر حجة فى كلامه .

قال تعالي : {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي* وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي*وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي* هَارُونَ أَخِي } (سورة طه : ٢٥- ٣٠)

وفي موضع آخر يقول تعالي :{ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ* وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ} (سورة القصص :٣٣- ٣٥)

فالله سبحانه وتعالى عندما أرسل موسى بن عمران إلى فرعون وطلب منه أن يبلغه رسالة الله ، وطلب الله منه الإبانة عن حجته ، والإفصاح عن أدلته ،فطلب موسى من ربه –سبحانة وتعالى– أن يحل عقدته ،ويذهب حبسته ويجري الكلام علي لسانه ، ليتمكن من إبلاغ رسالة الله {واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى}

ويذكر الجاحظ أن فرعون تشبث بكون موسي لايحسن الإبانة، وإظهار الحجة ، وهذا هو مذهب كل جاحد ومعاند، ووجهة كل مكابر، حيث عبر القرآن الكريم عن ذلك فى قوله : {أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ} (سورة الزخرف :٥٢)

لذا كانت استعانة موسى بأخيه هارون وتوجهه إلى الله أن يساعده به على إتمام الرسالة ، وإبلاغ الحجة ،وإقامة البرهان على فرعون يقول تعالى :

{وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي}

وكل ذلك لإتمام غاية الإفصاح بالحجة والمبالغة فى وضوح الدلالة ، واستجاب الله سبحانه وتعالى لسيدنا موسى، وحقق أمنيته ، فقال تعالى:{قد أوتيت سؤلك ياموسى}

والله سبحانه وتعالى استحاب لنبية موسى ؛ لمعرفته مدي حاجته إلي ما طلب ؛ ولأنه- سبحانه- مدح البيان ،وذكر فى كتابه الكريم عظيم نعمته فى تقويم اللسان ،وتعليم البيان ، قال تعالي : {الرَّحْمَنُ،عَلَّمَ الْقُرْآنَ،خَلَقَ الإِنسَانَ،عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}

ومدح القرآن بالبيان والإفصاح وحسن التفصيل والإيضاح، وجودة الإفهام

فقال جل شأنه : {ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ}

وكل هذا يبين لنا مزية البيان وفضل التبيان للمبدع ، وأهمية الفصاحة والبيان للإبداع ، كما بين الجاحظ فى خطابه الموازى.(٧٣)

تم بحمد الله

الخاتمة

======

من خلال معالجتنا للخطاب الموازى فى مؤلفات علماء البلاغة العرب انكشفت لنا عدة أمور، وظهرت لنا بعض المعارف التى كنا على غير دراية بها ، فتبين لنا أولاً : أن العلماء العرب فى العصور الأولى للتأليف فى العلوم العربية وما يتصل بها من تراث الإسلام ، كان الكثير منهم يهتم بتقديم كتابه ومؤلفه ووضع خطاب موازٍ لهذا الكتاب ، لأن هذه كانت عادتهم فى التأليف والكتابة ، فكان الواحد منهم لا يترك كتابه أو الخطاب الذى ألفه إلا بعد أن يضع له عنواناً ينم عن المضمون العلمى لهذا الخطاب ، ثم يُتبع هذا العنوان ببعض الجمل أو الكلمات أو الصفحات التى تعد بمثابة إضاءة أو كشف لعمله الذى كتبه مثل : التقريظ، الختم، التوطئة، وما إلى ذلك ، ورأينا ثانياً : أن بعض المؤلفين العرب كانوا لايهتمون بوضع ذلك الخطاب الأول لخطابهم الأصلى أو الثانى ؛ لأنهم جعلوا جل اهتمامهم بالعلم الذى يؤلفونه والمتن الذى يكتبونه ، فتناولوا المضمون العلمى مباشرة دون الالتفاتى إلى غيره من نصوص وعبارات ، ورأينا ثالثاً : أن ما عرف حديثاً بالخطاب الموازى أو النص الموازى أو الخطاب المقدماتى ، تعددت مسمياته لدى العلماء العرب ، فمنهم من كان يسمى ذلك الخطاب بالمدخل أو الافتتاحية أو الخطبة بين يدى الكتاب أو المقدمة أو التوطئة، ومنهم من كان يكتبه ولا يضع له مسمى على اعتبار أن هذا النص مجرد مدخل ،يدخل منه إلى العلم

الذى سيؤلف فيه، بدلاً من أن يتناول خطابه الأصلى مباشرة ، ورأينا رابعاً: أن هناك من العلماء العرب من اهتم اهتماماً كبيراً بالمقدمة والخطاب الموازى ،بما لا يدانيه أحد، وتمثل هذا الصنيع لدى عبدالرحمن بن خلدون الذى خالف كل من كتب خطاباً موازياً ، وأفرد له كتاباً أو قل مجلداً مستقلاً .

أما عن الخطاب الموازى للكتب التى ألفت فى البلاغة العربية حتى نهاية القرن السابع على التقريب : فقد رأينا أصحابها يهتمون فيها باهتمامات متنوعة، فمنهم من أفرد خطابه ببعض الأمور والمسائل التى تخصه وتخص العلم الذى كتب فيه ، كأن يتحدث مثلاً عن دافعه إلى تأليف هذا الكتاب، وعما تفرد فيه علمه وتأليفه عن غيره من العلماء ، ورأينا أن بعض هؤلاء المؤلفين يتوافقون ويماثل بعضهم بعضاً فى الكتابة فى أمور ومسائل متشابة.

ومن الأمور التى لفتت أنظارنا فى تلك المقدمات البلاغية أن أصحابها توافقوا فى مسائل علمية ومبادئ نقدية التفت إليها الدرس الأدبى الحديث والنقدى منه بخاصة ، وذلك مثلما ما وجدناه بينهم من تناص ،وتأثير وتأثر فى بعض المواد العلمية التى تناولوها ودرسوها فى تلك النصوص الموازية ، وكذلك ما وجدناه عند الغالبية منهم من انشغالهم بأمر المتلقى واهتمامهم به ودخوله فى دائرة وعيهم وتأليفهم ، فيدعون له تارة بالتوفيق والفهم و يلفتون نظره أحياناً إلى أهمية العلم الذى يقدمونه له لينهل منه ويأخذ منه ما يشاء ، ومما استرعي انتباهنا أيضاً فى ذلك الخطاب الموازى ،

ما وجدناه عند علماء البلاغة من اهتمامهم بأمر المبدع والإبداع وكذلك المادة التى يعتمد عليها مُبدع الخطاب ومنتج النصوص ، فقد بين غير واحد منهم ما يحتاج إليه مبدع الخطاب ومنتج العلم من إعداد النفس وشحذ الفكر و إعمال الفهم ، وألح بعضهم على ضروة اختيار الكلمات وتنقيح النصوص وإحكام الأساليب، ومعاودة النظر مرة بعد مرة فى أساليب الخطاب قبل إخراجها إلى المتلقى.

الهوامش والمراجع

==========

١- لسان العرب ، لابن منظور ، ط: دار المعارف بمصر : ١٩٧٩، تحقيق عبدالله علي الكبير وآخرين ، مادة: وزى

٢- القاموس المحيط ، للفيزوآبادى، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ ،ج:٤،ص: ٣٩٢

٣- المعجم الوسيط ، إصدار :مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ٢٠٠٤، مادة : وزي

٤-الخطاب الموازى للقصيدة العربية المعاصرة ، نبيل نصر : ط : دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ٢٠٠٧، ص: ٢١

٥- نفسه ، ص :٢٧

٦- معجم المصطلحات العربية، مجدى وهبة، ص: ٣٨٠

٧- شعرية العنوان فى قصص نجيب محفوظ ، رزيقة طاوطاو ،مجلة فصول، العدد: ٨٩،٩٠ ،سنة :٢٠١ ، ص١٨٢

٨- مدخل إلى عتبات النص ، عبدالرازق بلال ، ط : إفريقيا الشرق ،الدار البيضاء ،ص: ٣٨

٩- الإيضاح فى علوم البلاغة ،الخطيب القزوينى، ط: مكتبة الآداب بمصر ، ١٩٩٦،ص:٢١،٢٢

١٠-الشعر والشعراء، عبدالله بن قتيبة ، ط:دار الكتب العلمية ببيروت،١٩٨٥،ص: ١٧-٢٠

١١- راجع : مقدمة كتاب فقه اللغة وسر العربية لأبى منصور الثعالبي،ط : دار الفكر، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين ، ص : ٣ وما بعدها

١٢- راجع : مقدمة الكتاب ، عباس أرحيلة ، مجلة جذور، إصدار النادي الأدبي بجدة ،ديسمبر :٢٠٠٢ ، ص : ٣٢٣ -٣٢٥

١٣- الرواية: قضايا وآفاق، جمال سعد محمد، العدد:١٣،سنة: ٢٠١٤، ط: الهئة المصرية للكتاب، ص : ٢٨٤

١٤- راجع :العنوان وسيموطيقا الاتصال الأدبى ، د/ محمد الجزار، ط : الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٩٨،ص:١٩

١٥- راجع: العنوان فى الأدب العربى، د/محمد عويس ، ط: الأنجلو المصرية ،١٩٨٨،ص :١٦

١٦- انظر: الخطاب المقدماتى ، عبد الواحد بن ياسر ، مجلة : علامات ، مارس : ٢٠٠٣،ص ٦٢٦

١٧-انظر : نفسة ،ص٦٢٦ وما بعدها

١٨- انظر : مدخل إلى عتبات النص ، ص: ١١

١٩- شعرية العنوان فى قصص نجيب محفوظ ، ص ١٨٢

٢٠- انظر : هوية العلامات فى العتبات وبناء التأويل ، شعيب حليفى ، ط: المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٤، ص: ٣٧

٢١- فصول العدد:٨٩,٩٠،شعريه العنوان ص ١٨٣

٢٢- الخطاب المقدماتى،عبدالواحد ياسر ،مجلة علامات ،عدد محرم : ١٤٢٤ ، ص : ٦٢٨ ، ٦٢٩

٢٣- كتاب الحيوان للجاحظ ، تحقيق:عبدالسلام هارون ، ط: دار الجيل ببيروت، ج :١،ص: ٩٨

٢٤-مجاز القرآن:أبو عبيدة معمر بن المثنى، إخراج: محمد فؤاد سزكين ، ط : الخانجى بالقاهرة، ج:١، ص: ١-٣

٢٥- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحى، قراءة: محمود شاكر، ط: دار المدنى بجدة،ج :١،ص:٣

٢٦- راجع : تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة، تحقيق : السيد أحمد صقر، ط: دار التراث بالقاهرة،ص :١٠-١١

٢٧- فحولة الشعراء للأصمعى، شرح : محمد عبد المنعم خفاجى وطه الزينى،ط: المكتبة المنيرية بالأزهر،١٩٥٣،ص١٢

٢٨- الكتاب: كتاب سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر،ت: عبدالسلام هارون،ط: الخانجى ، بمصر ١٩٨٨،ج :١، ص :١٢

٢٩- نفسه ، ج :١، ص : ٥

٣٠- مقدمة : عبدالرحمن بن خلدون، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، تقديم :د/ عبادة كحيلة، ٢٠٠٧، ص:٥

٣١- راجع : المقدمة : ص : ٧ وما بعدها

٣٢- مقدمة ابن خلدون ، ص : ٥٣٤

٣٣- راجع: نفسه ، ص : ٢٧

٣٤-راجع: نفسه ، ص : ٢٠

٣٥- البيان والتبيين ، عمر بن بحر الجاحظ ، تحقيق : عبدالسلام هارون ، ط : دار الجيل ببيروت ، ج :١، ص :٢٠

٣٦- نفسه ، ج : ١، ص :٢١،٢٠

٣٧- راجع : كتاب الحيوان ، ج : ١ ، ص :٣

٣٨- راجع : كتاب البديع، عبدالله بن المعتز، طبع باعتناء : إغناطيوس كراتشقوفسكى ، ط : دار المسيرة ببيروت ، ١٩٨٢، ص:١

٣٩- كتاب الصناعتين، لأبى هلال الحسن العسكرى، ت : مفيد قميحة، ط: دار الكتب العلمية ببيروت، ١٩٨٤، ص :٩

٤٠- أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى، قراءة : محمود شاكر ، ط : دار المدنى بجدة ، ١٩٩١، ص : ٣

٤١ – المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الأثير ، ت :د / أحمد الحوفي و د / بدوي طبانة ، ط : نهضة مصر ج : ١ ، ص : ٣٣٤١-

٤٢ – راجع: بديع القرأن ، ص : ١٤ ،١٥

٤٣– كتاب الطراز، ليحى بن حمزى العلوى، راجعه: محمد شاهين ، ط : دار الكتب العلمية ببيروت، ١٩٩٥، ص : ٣

٤٤– البيان والتبيين ، ج : ١، ص : ٨

٤٥– كتاب الصناعتين ، ص :٩، ١٠

٤٦– دلائل الإعجاز : لعبد القاهر الجرجانى ، قرآه: محمود شاكر، ط : مكتبة الخانجى بالقاهرة،١٩٨٩، ص: ٥، ٦

٤٧ – البيان فى علم المعانى والبديع والبيان ، لحسين بن محمد الطيبي ، ت : هادي الهلالي ، ط : عالم الكتب ببيروت ، ١٩٨٧ ، ص : ٤٤، ٤٥

٤٨– راجع : مدخل إلى عيبات النص ، ص : ١٥

٤٩– راجع : الخروج من التيه ، د/ عبدالعزيز حمودة ، ط : عالم المعرفة ، نوفمبر : ٢٠٠٣ ، ص :١١٠

٥٠– الموازنة بين الطائيين ، ط : دار المعارف بمصر ، ت : السيد أحمد صقر

٥١– كتاب الصناعتين ، ص : ٩

٥٢- البيان والتبيين ، ج : ١، ص : ١٢

٥٣- نفسه ، ج : ١، ص : ١٣

٥٤- نفسه ، ج : ١، ص : ١٤

٥٥- المثل السائر ، ج : ١، ص : ٣٥

٥٦- دلائل الإعجاز ، ص : ٥

٥٧- انظر التلقى والنقد القديم ، أحمد على محمـــد ، مجلـــة : علامات فى النقد ، محرم : ١٤٤٢، ص : ٤٤٨

٥٨ - كتاب البديع ، ص : ١

٥٩- راجع الإبداع الشعرى من المنظور النفسى ، د/ نصـــر محمد عباس ، ط : دبى ، ١٩٩٨، ص : ٥

٦٠ - راجع : ما الإبداع ، مراد وهبة ، م : فصول ، العددان : ٩١ ، ٩٢، ٢٠١٤/٢٠١٥، ص : ١٦

٦١- راجع : نفسه ، ص : ١٣

٦٢ - راجع : العبقرية تاريخ الفكرة ، تـــأليف : بنيلـــوبى مرَّى، ترجمة : محمد عبد الواحد محمد ، عالم المعرفة ، إبريـــل: ١٩٩٦، ص: ٢٦،٢٧

٦٣ - الإشارات والتنبيهات ، ص : ٢

٦٤ - كتاب الصناعتين ، ص : ١١،١٢

٦٥- بديع القرأن ، ص : ١٣

٦٦- التبيان فى علم المعانى والبديع والبيان ، ص : ٤٤ ، ٤٥

٦٧- العبقرية : تاريخ الفكرة ، ص : ١٤٨

٦٨- أسرار البلاغة ، ٥ ، ٦

٦٩ - البيان والتبيين ، ج : ١، ص ١٤ ، ١٥

٧٠ - راجع : نفسه ، ج : ١، ص : ١٥

٧١- نفسه ، ج :١، ص :١٣

٧٢- راجع نفسه ، ج : ١، ص : ١٢

٧٣- راجع البيان والتبيين ، ج : ١ ، ص : ٧ ، ٨